



مراجعات

مراجعات

صفر 1437 هـ - نوفمبر 2015م

ملحق تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من المصادر الأجنبية التي تناولت عُمان كتاب «رحلة البيكوك: يوميات الطبيب البحري بيناجاه تكنر»، وهو عبارة عن سجل ليوميات الطبيب الأمريكي بيناجاه تكنر Benajah Ticknor (1788-1858)، وقد نشرتها جامعة ميتشجن سنة 1991. عمل تكنر جراحاً في البحرية الأمريكية خلال السنوات من 1818 إلى 1854، وهي الفترة التي سافر فيها إلى مناطق عديدة في أمريكا الجنوبية والشرق. توقف تكنر في مسقط، ضمن طاقم البارجة الأمريكية «البيكوك»، لمدة ثلاثة أسابيع تقريباً من 16 سبتمبر حتى 7 أكتوبر من سنة 1823.

يصف تكنر وصول سفينة البيكوك إلى مسقط. ويذكر أنهم حين اقتربوا من الميناء وبدت لهم السفن الراسية فيه وأصبحت البيكوك على مرأى من القائمين على الميناء، أرسل إليهم قارب استطلاعي ليعرف هويتهم وهدفهم من الزيارة، فأخبرهم أن البيكوك سفينة حربية أمريكية تحمل على متنها مبعوثاً جاء ليعقد اتفاقية مع السيد سعيد بن سلطان. وما أن وصلت السفينة حتى صعد فيها عربي يُجيد اللغة الإنجليزية واسمه الكابتن سعيد بن خلفان وتحدث مع القبطان إدموند روبرتز عن مواضيع عدة من بينها موضوع رسالة كان السلطان قد أرسلها إلى الرئيس الأمريكي يُعلمه فيها بأنه يسمح للأمريكيين، مثل ما هو الحال بالنسبة إلى الإنجليز والفرنسيين، بالتجارة الحرة في كل الموانئ التي يُسيطر عليها باستثناء زنجبار التي يُمنع منعاً باتاً دخولها. غير أن الكابتن سعيد بن خلفان أكد لهم أن السلطان ليس لديه نية منعهم من التجارة مع زنجبار وهي المدينة التي ينوي أن يستقر بها.

ثم يتطرق تكنر لوصف السلطان فيذكر أنه كان يُناهز الخمسين من العمر ولكنه كان يبدو أكثر حيوية بكثير من رجل عمره خمسين سنة في بلد بحرارة مسقط. ويذكر أن لباسه ومسكنه كانا متواضعين نسبياً، وأن مراقبيه كانوا مسلحين بطريقة عادية جداً لا تتعدى خنجرًا في الخصر وسيفاً يتدلى على الجنب. ويُذكر أن السلطان اقترح عليهم زيارة اسطبلاته ليطلعوا على خيوله السلطانية. ثم يتحدث تكنر عن انتشار الأمراض الجلدية وأمراض العيون خاصة بين طبقات عامة الشعب. وهي أمراض، كما يقول، تسببها: «الحرارة المفرطة والنور المفرط والغبار الذي تدرؤه الرياح من الصخور والرمال».

ويختم قصته عن مسقط بذكر العنب والتمر والحليب الجيد والمياه العذبة التي تناولوها على متن السفينة طوال الفترة التي رست فيها في الميناء. ويذكر أن درجة الحرارة خلال تلك الأيام كانت شديدة الارتفاع، كما يؤكد على أن البلاد لا تعرف سوى فصلين: الصيف والشتاء، وقد قيل له: «إن مسقط تبرد كثيراً في الشتاء حتى أنك تضطر إلى لبس ملابس صوفية. وتتساقط الثلوج في جبال الداخلية».



• الدولة المدنية
• جاسر عودة



• اليقظة العربية الثانية
• مروان المشير



• مفهوم الدولة الإسلامية
• أحمد جبرون



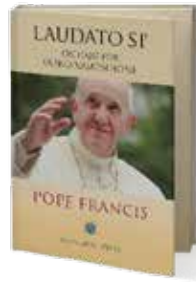
• عيد العنصرة في أرض النبي محمد
• فرانچيسكو سترازاري



• أن نزهدر
• أريانا هوفينغتون



• إمبراطورية التفويض السماوي
• باولو سانتانجيلو



• رسالة عامة بابوية، «كن مسبّحاً»
• حضرة البابا فرنسيس



• مواجهات ثقافية
• سعد البازعي



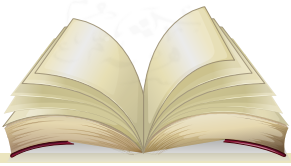
• في كواليس الشرق الأوسط
• إريك رولو



• ما بعد الرأسمالية: دليل لمستقبلنا
• بول ماسون



• أوروبا الألمانية: طبيعة جديدة للقوة في ظل
الأزمة الاقتصادية
• أولريش بك



مفهوم الدولة الإسلامية: أزمة

ماجد العلوي

توطئة:

يعدُّ كتاب مفهوم الدولة الإسلامية (أزمة الأسس وحتمية الحداثة) أحد الأعمال العلمية الجادة - حسب وجهة نظر هذه القراءة - فقد تناول الباحث مفهوم الدولة الإسلامية باستقصاء ماضٍ سياسي حافل في التراث الإسلامي، وهو يضع نصب عينيه جل الإشكاليات المحيطة بهذا المفهوم من حيث الوجود ومرورا بالمعرفة المحيطة بالتجربة السياسية الإسلامية.

لقد جاء هذا الكتاب ليعلن على فتح نقاش عام حول فكرة الدولة الإسلامية، ومحاولة لاستنباط مفاهيم وأصول قادرة على التكيف مع متطلبات التحديث السياسي، كالبينة والعدل والمعروف، وأن يزن كذلك ما ظن أنه من صور التقديس في التجربة السياسية وزناً دقيقاً يحتمل فيه إلى الواقع المسترشد بالنص، لا أن تكون التجربة السياسية التاريخية نصاً مقدساً، فهذه الأخيرة يعدها الباحث فكرة متسرعة يعوزها الدليل والضمم الأصيل.

والاقتصادي والتوسع في العمران وتعليم الناس... الخ، ويعزو سبب هذا الفشل إلى حداثة الدولة الإسلامية، وطفان الهموم العسكرية والأمنية عليها آنذاك.

ويبدو أن هذه الفكرة من الأفكار المتسرعة في هذا الكتاب، فهي تحاكم الأنموذج الراشدي دون مراعاة للتطور الحضاري الذي تسير عليه الإنسانية، فالمعروف قيمة متغيرة ومتطورة، وما وصلت إليه في الدول المدنية المعاصرة إلا بسبب تطور التجربة السياسية الإنسانية، إذ لا يمكن مطالبة دولة الراشدين بأن تكون مثل دول عصرنا؛ لأنه مطلب مخالف لسنن الكون.

إن الخلافة الراشدة تعد الأنموذج الفعلي للتجربة السياسية الإسلامية، وذلك من خلال نظرنا لها بأنها التطبيق البشري للنص القرآني والحديث النبوي الصحيح، وقد قامت على العدل، وهاتان القيمتان تشكلان الهوية الإسلامية، والاحتذاء يكون للهوية وليس للتفاصيل الجزئية، أما في التنزيل الواقعي فإن التجربة الراشدة أثبتت جدواها قارياً إذ امتدت في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان من جزيرة العرب إلى حدود الهند في آسيا ومنها إلى حدود المغرب الأقصى في أفريقيا غرباً، وقد استطاعت رغم هذا الاتساع أن تحافظ على الهوية الإسلامية القائمة على البيعة (العقد) والعدل.

وعلاوة على ما ذكر فإن التجربة الراشدة امتازت بلامح من شأنها بلورة مشروع سياسي واضح لا يمكن حجبها بفكرة التاريخانية، ومن أبرز هذه العوامل: أن الخلافة خاضعة لسلطة الأمة في اختيار الرئيس، وتوصيف مهامه، وتحديد واجباته، فليس له العمل في التجارة مثلاً، كذلك التشديد على الوحدة الإسلامية لجميع المناطق، دون التفريق بين الأعراق، وحفظ حقوق الناس بالنظم الشرعية التي تعلق على الجميع من بينهم الرئيس نفسه. كل هذه السمات تجعل من التجربة الراشدية مثلاً متألماً ينبغي الاقتراب منه، وليس النفور منه بحجة أنه تجربة بشرية اجتهادية.

- الفصل الثالث: دولة العصبية الإسلام السياسي التاريخي جاء في الفصل الثالث رصد تطور دولة العصبية التي نشأت بعد مقتل الخليفة الرابع علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، ويرى الباحث أن هذه الدولة تعد الشكل الثاني للدولة الإسلامية بعد الدولة التي نشأت من التأسيس الأول في سقيفة بني ساعدة، غير أن المخاض الذي سبق دولة العصبية أكسبها صلابة للاستمرار

الإسلامية الراشدة، وقد أشار إلى أن العقل السياسي الإسلامي تعامل مع هاتين التجريبتين بنمطين من التوصيف - كما ذكرنا سابقاً - وهما النمط الوصفي، والنمط الشكلاني، فالأول يرى تحقق الدولة الإسلامية مشروطاً بتحقق عدة أوصاف كالحاكمية، وتطبيق الشريعة، والشورى، والإمامة، في حين ركزت الشكلانية على المظهر، وتصورت أن الدولة الإسلامية هي تلك التي تحاكي الخلافة الراشدة شكلاً، وتتلى بصفاتهما، لذا وجد الباحث أن قضية الدولة الإسلامية تعاني من أزمة، يمكن الكشف عن ماهية هذه الأزمة من خلال طرح جملة من الأسئلة، من أبرزها: هل الدولة الحالية التي توطر الفعالية الحضارية للأمة دولة إسلامية؟ ما المقومات الرئيسية للدولة الإسلامية؟ ما شروط هذا الوصف (إسلامية) وما مصادره؟ ما حدود التقاطع بين الدولة الإسلامية والدولة الحديثة؟

هذه أبرز التساؤلات، تحاول توصيف الخلل في مفهوم الدولة الإسلامية، أو نستطيع القول أسلمة الدولة، فأصل الخلل كما يراه الباحث خلل منهجي يظهر في مناهج قراءة النص الشرعي تلك القراءة التي تعطي الأولوية للأحكام بدل الحكم، وتقدم الجزئيات على الكلليات، وعليه يقترح الباحث لتجاوز هذه الإشكالية منهجاً يعطي الأولوية للكلليات والحكم والمنهج، بدل التمرکز حول الجزئيات، ويسعى أيضاً لتحريير النص الشرعي من التاريخ وأثاره الثقافية التي نتجت من اجتهادات موروثية. وهكذا ينتهي بالباحث المطاف إلى إقرار أسس من شأنها أن تحقِّق وصف (إسلامية) مضافاً إلى الدولة في المجالين العربي والإسلامي، وذلك باعتماد المبادئ الآتية على التوالي: البيعة (التعاقد) والعدل والمعروف، وفي غياب هذه المبادئ يضعف منسوب الإسلامية، وإن وجدت بعض إشارات وشكلياتها.

- في الفصل الثاني تناول الباحث عنواناً مثيراً للجدل، وهو «دولة الراشدين وأرخبنة الأصول»: فالتجربة السياسية في دولة الراشدين ظلت الأنموذج المشرق الذي يتطلع له جل الإسلاميين، ولكن الباحث رأى في هذا الأنموذج قصوراً حاداً في إرساء أسس من شأنها تثبيت مفاهيم سياسية لتشكيل الدولة الإسلامية، تكون هذه الأسس متجاوزة للأزمنة، وصالحة لمعظم الأمكنة، وإن كان الباحث يقرُّ بأنها نجحت في الحفاظ على سلطة الأمة في تعيين الخلفاء، غير أنها فشلت في توسيع مجال (المعروف) أي ذلك المجال المتعلق بمصالح الناس عامة مثل: التطوير الإداري

فالدولة الإسلامية لها أركان ومقومات، وتحقق وجودها مرهوناً بمتطلبات الوقت واللحظة الحاضرة، وتدار بتشريع مدني يتسع لرأي ذوي الخبرة والمعرفة بالأحوال، أما النصوص التشريعية فهي تُسَوَّرُ هذه التجربة حتى تتوافق مع القيم العليا التي جاءت بها الرسالة، ويستقر اجتهاد الباحث على أن العقل السياسي الإسلامي يعيش مفارقة ضاغطة جراء صناعة مرجعية معيارية تجعل فكرة الدولة الإسلامية رهينة التجارب السياسية التاريخية، حيث تحولت هذه التجارب إلى معيار مقدس لا يمكن للدولة الإسلامية أن تنشأ إلا بمحاكاتها، فالباحث لا يرفض محاكاة القيم، ولكنه يرى في التجربة التكوينية والإدارية التاريخية اجتهاداً بشرياً يمكن للعقل السياسي الإسلامي تجاوزه وتحديثه، لذا كان عنوان الكتاب يشير إلى أن مفهوم الدولة الإسلامية يعيش أزمة الأسس، أما تحديثه فهو أمر حتمي لا بد منه، وعليه يرصد الباحث مفهوم الدولة الإسلامية في منظومة الحركة الإسلامية، ويرى أن هذا المفهوم تشكل بنمطين: الأول هو النمط الوصفي، أما النمط الثاني فهو النمط الشكلاني، ولا يُخفي بعد ذلك توقفه مع هذين النمطين لأنهما يتشكلان وفق أحكام جزئية، ولا يستندان إلى الأحكام الكلية التي تتمثل في (العدالة والبيعة والمعروف) حسب رأيه.

وقبل التعمق في فهم مكونات هذا الكتاب تجدر الإشارة إلى أن الكتاب لم يخل من المغامرات الفكرية، ومن الآراء التي ستصدم الوجدان الإسلامي، ولكن الباحث اجتهد في إعطاء معظم الأفكار حقها من المعالجة، وكان حريصاً ألا يتجاوز المقدس، وألا يعتدي عليه، وساح في القضايا الاجتهادية بغرض إضفاء السمة الموضوعية في فهمنا للدولة الإسلامية.

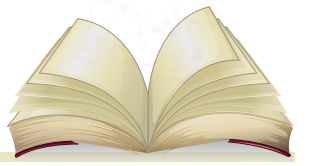
الكاتب:

أحمد جبرون: ولد في المغرب عام 1971م، أستاذ جامعي، له عدد من الكتب من أبرزها: الفكر السياسي في المغرب والأندلس في القرن الخامس الهجري (2008)، المقاصد في الفكر الإصلاحي الإسلامي (2009)، إشكالية الوظيفة الدينية في الدولة المعاصرة (2011)، فصول من تاريخ المغرب والأندلس (2013).

جوهر الكتاب وأهم استعراضاته:

تناول الباحث قضية إسلامية الدولة من قناعة مفادها أن هذا المفهوم يستحضر واقعتين تاريخيتين في الضمير المعرفي للإسلاميين، وهما التجربة النبوية المشرقة، والخلافة





أزمة الأسس وحتمية الحداثة



وتجاوز العقبات، وفرضت نفسها وجوداً وفكراً، وبات المسلمون بين أمرين: إما التشبث بشرعية الأمة مع استحالتها التاريخية، وإما التكيف مع الإكراه التاريخي، والقبول بالنقص. وعليه فإن الدولتين الأموية والعباسية وغيرهما من الدول الإسلامية جاءت بعدهما تجسيدا لمبادئ الإسلام السياسية في حدود المتاح تاريخياً. في هذا الصدد يمكن القول إن الإكراه التاريخي تصارع مع مفهوم البيعة، وظل العدل قيمة حاضرة إلا في شرعية الأمة في اختيار الحاكم، أما المعروف فيسير في حالة متطورة، نتج عن ذلك تشبث دولة العصبية بحق تولي الحكم، ويرى الباحث أن البيعة لم تفقد المصادقية رغم هذا التحول، بل كانت تتمتع بجميع الخصائص التي يفرضها المفهوم من شوري وحرية... إلخ.

والإضافة المنهجية التي يمكن رصدها في معالجة الباحث تظهر في أن هذه التحولات لم تكن انحرافاً أخلاقياً، ولا ذكاء سياسياً من أحد، بقدر ما كانت تحولا تاريخياً عميقاً، أسهمت فيه جملة من العوامل السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية... إلخ ولم تعد التجربة الراشدة قادرة على الحضور في ظل التغيرات التي طرأت على الناس في تلك الفترة، فالاستقرار الذي رسخته دولة العصبية كان له انعكاس إيجابي على مجموعة من وظائف الدولة وأدائها، وقد دلت الباحث على هذه الإيجابيات بالأمثلة. يمكن للقارئ الاطلاع على أهم منجزات دولة العصبية في الكتاب نفسه.

- الفصل الرابع: الدولة الإسلامية أزمة الأسس وحتمية الحداثة

تناول الباحث في هذا الفصل فكرة استمرارية دولة العصبية التي استطاعت أن تنوب عن دولة الخلفاء الراشدين رغم الانتهاك الواضح في حق الأمة في تحديد مصير من يحكمها، وفرضت نفسها رغم شعور الأمة بأنها في إكراه تاريخي شمل جانباً من الجوانب، لكنها في الوقت نفسه احتضنت -دولة العصبية- التطور الحضاري للدولة الإسلامية، وبلغ ذلك التطور أزهى فتراته تسهم فيه الأمة أفراداً بصفتهم الشخصية، وجماعات تحت راية الدولة إسهاماً انعكس على معظم أنحاء العالم، فدولة العصبية على اختلاف توازنها مع المثالية الإسلامية إلا أنها كانت دولة الوقت، وعندما يزول الوقت فإن دولة العصبية حتماً لن تستطيع إدارة شؤون الناس، وهذا ما حدث في بداية العصر الحديث، فقد عادت الإنسانية إلى القيم الإنسانية السياسية العليا تدعو إلى قيمة اختيار الحاكم، والعدالة، والتنمية وخصوصاً في العالم الغربي الذي بدأ ينتفض ضد النظم السياسية الأحادية، كذلك التحولات التي حدثت في العالم كان لها انعكاس على تطلعات الأمة في تحديث نظمها السياسية، ولا سيما في لحظة بزوق فجر دولة الأمة - كما يحلو للكاتب تعنتها- ويقصد بذلك الدولة المدنية.

إن ظهور الدولة المدنية جعل دولة العصبية في مأزق حقيقي سمح للمفاهيم المدنية أن تبرز بقوة في فكر الإصلاحيين الذين ينادون بعودة الدولة الإسلامية، لكن ما هو أشد تازماً أن الدولة المدنية ستنشأ على أعين الاستعمار الذي لن يسمح للقيم العليا أن تحضر بوضوح وشفافية في العالم الإسلامي، وعليه سيظل مفهوم الدولة الإسلامية في أعين جل الإصلاحيين في أزمة أخلاقية منشؤها الانقطاع عن موارد إسلامية الدولة وأصولها، وفي مقدمتها أصول البيعة والعدل والمعروف، لذلك يرى الباحث أن أزمة الأسس

- أن وظيفة النص السياسي الإسلامي في علاقته بنشأة الدولة الإسلامية كانت وظيفة تخليقية، الغرض منها تحرير الجماعة السياسية من جميع أشكال الخضوع والتحييزات الجاهلية. وهذه الفكرة تحتاج إلى شيء من التحرير ذلك لأن النص السياسي الذي تجسد في دولة النبوة كان له دور أكبر من التخليق.

- غموض في بعض المفاهيم: على سبيل المثال لم نجد توضيحاً كافياً لمصطلح الحداثة ولا الحتمية، ولا دولة الأمة، ودولة العصبية.

لا شك هناك جدليات أخرى نتركها للقارئ تهدف إلى استتارة الباحثين في إعادة قراءاتهم للتجربة السياسية الإسلامية. إطلالة على المراجع:

تنوعت مراجع الباحث بين القديم والحديث، وبين الإنتاج الفكري العربي، والمراجع الأجنبية، وإن كانت الأخيرة لم تتجاوز ثلاثة مراجع. بدأ الباحث مستقصباً مفهوم الدولة الإسلامية عند المنظرين الأوائل من أمثال ابن تيمية، وابن جماعة، وابن حزم، والعز بن عبد السلام، والجويني وغيرهم، كذلك عرج على كتاب الآداب السلطانية من أمثال أبي يعلى الفراء، والماوردي، واستمرت رحلته البحثية تجوب مجموعة من كتب التاريخ وأصول الفقه، والسير، ثم حطت رحاله في المصنفات الحديثة وخصوصاً عند الإصلاحيين من أمثال رشيد رضا، وحسن البناء، وسيد قطب، والموودودي، كذلك ركز على المنظرين الأكثر معاصرة من أمثال الغنوشي، ومحمد عمار، والنفيسي، ولم يكتف بذلك بل طافت مراجعه على المفكرين المعاصرين الذين اهتموا بالسياسة الشرعية وهم من خارج دائرة الإصلاحيين، ويمكن تعنتهم -تسامحاً- المتنورين من أبرزهم على سبيل المثال محمد عابد الجابري، وحسن حنفي، ومحمد أركون، وهذه الثلاثة من الباحثين وغيرهم ممن لم تسمح لنا هذه الإطلالة بذكرهم تدفعنا إلى القول أن المراجع كانت وافية إلى حد بعيد.

الخاتمة:

يتضمن الكتاب دراسة مفصلة عن موضوع يُعد غاية في الأهمية والتشعب، وقد تعامل الباحث محمد جبرون مع شاغله بحس حضاري يربو إلى إيجاد استقرار سياسي للأمة العربية التي تُعاني من أزمات سياسية عميقة بسبب فقدان ماهية الدولة الإسلامية في الذهن السياسي الإسلامي، فالاستقرار السياسي الذي تبحث عنه الأمة الآن لن يتحقق ما لم ينجح العرب في إقرار دولة متصالحة مع الذات، أفرادها ينزلون على حكم القيم السياسية العليا للإسلام ومقتضياته، وعلى رأسها البيعة والعدل والمعروف، دون استصحاب وقائع تاريخية وإجبارها قسراً لتكون أنموذجاً مقدساً لا يُحاد عنه.

الكتاب: مفهوم الدولة الإسلامية: أزمة الأسس وحتمية الحداثة
المؤلف: محمد جبرون

مؤسسة النشر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،
الطبعة: الأولى، بيروت، سبتمبر 2014 م
عدد الصفحات: 392 صفحة

* باحث وكاتب عماني

أصابته الدولة العصبية باعتبارها دولة إسلامية مغيرة ومبدلة، ومن ثم فإن هذه الأزمة ستفرض على الفكر السياسي الإسلامي التوجه رأساً نحو التحديث، والانفتاح على الواقع، والتجاوب بكل تواضع مع معطياته.

وصفوة القول أن الدولة الإسلامية -حسب وجهة نظر الكاتب- ليست دولة الخلافة، بالمعنى الذي يحيل على تجربة الراشدين، وليست دولة العصبية (دولة وراثية) وليست دولة شرعية تختزل مهام الدولة في التطبيقات الجنائية، إنما هي دولة الوقت التي تعمر العالم، وتتحصن بالقيم السياسية العليا من بيعة، وعدل ومعروف.

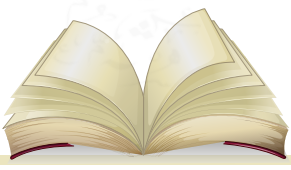
5- الإشكاليات المنهجية:

لا نرمي من ذكر هذه الإشكاليات الانتقاص من أهمية الكتاب، بل إن هذه الإشكاليات -حسب وجهة نظر هذه القراءة- هي محل تقدير بما فتحت من نقاش خارج دائرة المؤلف من الفكر فيه، وتُشعرن إلى معالجات تفحص الموروث بعين بصيرة بغرض إضفاء السمة الموضوعية على البحث الفكري السياسي لمفهوم الدولة الإسلامية، ومن أبرز هذه الإشكاليات:

- بروز فكرة الحتمية التاريخية بشدة حتى أنها تحكمت في معظم النتائج، وما يبدو لنا أن الأمم مختارة وإن تقلصت الخيارات حولها، والعقل الجمعي يملك خيارات الممانعة من حتميات الظروف، وما فشل الممانعات التاريخية إلا بسبب عدم رقيها إلى مستوى التغيير.

- مصادر التشريع الإسلامي في المجال السياسي لم تكن دينية على إطلاقها، بل كانت تتسع للرأي والمشورة والاجتهاد البشري، وهذه الفكرة تنال من الصواب صميمه، ولكن فيها محذور قد يفهم منه قصور التشريع السياسي في مصادر التشريع، وهذا لا يتوافق مع المنظومة الفكرية الإسلامية التي ترى أن مصادر التشريع أسست مقاصد عامة تابعة من حركية النصوص لا جمودها.





اليقظة العربية الثانية وال

محمد المحفلي

يمثل كتاب اليقظة العربية الثانية والمعركة من أجل التعددية محاولة تحليلية وتنظيرية لتوجيه التحولات السياسية في الوطن العربي نحو أفق يصل بها إلى بر الأمان، والوصول إلى مجتمع يتعايش فيه الجميع بتعددهم واختلافهم، بتجاوز أي شكل معين للنظام السياسي، فالغاية التي يريد أن يؤكد عليها الكاتب عبر أجزاء الكتاب هي الاعتراف بالاختلاف والتعددية، فهي العامل الأساسي لأي استقرار سياسي وحتماً سيؤدي إلى استقرار اقتصادي واجتماعي ومن ثم فكري وعلمي، ومناقشة العالم الحديث.

مؤلف الكتاب مروان المعشر الذي يشغل حالياً منصب نائب الرئيس للدراسات في مؤسسة كارنيغي الأمريكية، يقوم بالإشراف على الأبحاث في واشنطن وبيروت حول الشرق الأوسط، وهو قبل أن يكون باحثاً متخصصاً حول هذه المنطقة المتهبة من العالم كان قد عمل سفيراً للأردن في الولايات المتحدة الأمريكية ووزيراً للخارجية ونائباً لرئيس الوزراء، يظهر في هذا الكتاب باحثاً يحاول التجرد من أية انتماءات سياسية، أو فكرية والوصول بالقارئ إلى قنوات تتجاوز الضرف الجغرافي والتاريخي الذي يبحث فيه. ومع كل هذه المحاولة للحيادية فإن لمسات مؤسسة كارنيغي بوصفها مؤسسة أمريكية قد أثرت كثيراً في سيرطروحاته لا سيما حين يتعلق الأمر بالصراع العربي الإسرائيلي.

إن الفشل في اليقظة الأولى كما يرى كان سبباً حتمياً لظهور الثانية، معتمدة على أهم ما يمتلكه العالم العربي المتمثل في التنوع العرقي والثقافي والديني والفكري. بل وبأن البداية كانت من تلك الدول التي وضعت على عاتقها حمل مشاغل اليقظة الأولى وإن انطفاً أخيراً.

اليقظة الثانية حلم وواقع: يسجل المؤلف بداية اليقظة الثانية كما يسميها بحادثة إحراق البوعزيزي نفسه مسجلاً اعتراضه المباشر على قمع الشرطة له ومنعه من مزاولته عمله المتواضع الذي يحاول أن يكسب فيه لقمة العيش في ظل استئراء البطالة والاعتراض غير المباشر على الأوضاع المزرية سياسياً واجتماعياً التي استشرت في تونس بوصفها نموذجاً لغيرها من البلدان العربية، ويقدر ما تمثل هذه الحادثة من تسجيل لانتفاضة ثانية فإنها تعلن فشل الانتفاضة الأولى.

وعلى الرغم من أن هذه اليقظة قد تعثرت على ما يبدو، فإنه قد وضع استدراكاً يمكن أن يجيب على هذا الطرح الذي قد يلقيه القارئ عليه بالقول: إن نتائج هذه اليقظة لا يمكن أن تظهر إيجابياً على المدى القريب بل إنها لن تتكشف إلا على مدى عقود قادمة، وليس على مدى أشهر أو سنوات، وهو إذ يقدم ذلك فإنه يعزو القصور إلى عدم وجود إطار فكري معين ينظم هذه الحركة التي بدأت شعبية، ثم وجدت مع حركتها عدداً من التدخلات الخارجية. ويسوغ قوله بتأخر نتائج هذه الانتفاضة من خلال تقديم الكثير من النماذج التي تأخرت فيها الديمقراطيات حتى عهد قريبة كما حصل في اليابان وإسبانيا والبرازيل.

مفهوم الاعتدال والإسلام السياسي:

على الرغم من أن المؤلف قد وضع الكتاب بناءً على احتياجات التحرر للعالم العربي، فإنه لم يتحرر من سيطرة المؤسسة التي يكتب فيها بوصفها مؤسسة أمريكية لها وجهة نظر معينة نحو المنطقة وعلاقتها بالشرق الأوسط، فقد أفرد اهتماماً كبيراً لما يسميه السلام مع إسرائيل ويحاول إعادة

السياسي. وكل هذا الصراع هو نموذج لعدم الاستقرار الذي سببه الأساسي عدم الاعتراف بالتعدد والتعايش، إذ يرى أن الصراع في الوطن العربي هو صراع من أجل التعددية.

اليقظة العربية الأولى:

في الوقت الذي يرى فيه المؤلف أن اليقظة الثانية جاءت من أجل التعددية فإنه يقول بأن اليقظة العربية الأولى جاءت من أجل التحرر والاستقلال بدءاً من التحرر الثقافي والفكري وانتهاءً بالتحرر السياسي، ولكن كل تلك الثورات لم تنجح ولم تحقق الحرية بالمفهوم الدقيق لها فقد تم استبدال الاستعمار الخارجي بالمحلي. وحتى الاستقلال لم يتحقق بصورة شاملة ولم يتحقق غير الفشل وعدم القدرة على حل القضية الفلسطينية، وضعفت المناقشة لتتحصر بين النخبة الحاكمة والإسلام السياسي فقط.

لقد بدأت كما يرى اليقظة الأولى على يد النخبة عبر إدخال أفكار جديدة وفي مختلف مجالات الحياة قبل الدخول في مرحلة الصدام مع المستعمر وأدواته في الداخل. وكان ذلك في مراكز الإشعاع الحضاري في الوطن العربي، مصر ولبنان وسوريا وتونس، ومع هذا التعدد في الأمكنة فقد كانت تحمل الهوية العربية الشاملة على الرغم من أن بعض المفكرين هم من العرب غير المسلمين.

ويرى المؤلف أن من أهم عوامل فشل اليقظة الأولى هو أن الدول التي تكونت في هذه المنطقة العربية بعدها لم تول اهتماماً لتطوير أنظمة حكم تعددية، ثم تحولت فلسطين إلى قضية عند كثير من الأنظمة للابتزاز السياسي والترويج الأيديولوجي وتأجيل الإصلاح السياسي تحت غطاء هذه القضية.

ثم لما تعرضت الأنظمة السياسية ذات الطابع القومي للهزيمة في الستينيات من القرن الماضي ظهر ما يسمى بالإسلام السياسي، ليس لإيجاد شيء من التنوع بل لجعله فزاعة أخرى في طريق إيجاد أي مظهر لهذا التعدد داخل الدول والأنظمة السياسية.

تقسيم الكتاب:

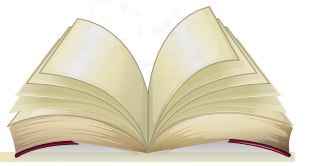
يقسم الكتاب إلى جزأين، الجزء الأول يعنونه بـ: فهم اليقظة، وفيه أربعة أقسام الأول تكلم فيه عن اليقظة العربية الأولى، والتي كانت تحت راية الاستقلال والتحرر الوطني من الاستعمار، والقسم الثاني وضعه بعنوان إعادة تعريف الاعتدال العربي وفقاً لما يراه من تطورات حصلت على مستوى العالم العربي، والقسم الثالث يناقش فيه الحركات الإسلامية بمختلف توجهاتها ومشاربها فيما إذا كانت ديمقراطية أم استبدادية، وفي القسم الرابع يعيد تقييم ما قد تغير.

أما الجزء الثاني فيعنونه بـ: من اليقظة إلى التعددية، وهو يشمل الجانب التنظيري لما ينبغي أن تكون عليه اليقظة الثانية من وجهة نظره، وقد تضمن هذا الجزء ثلاثة أقسام، الأول: يتحدث فيه عن التعليم ودوره في ترسيخ التعددية لدى الأجيال، والثاني: يناقش فيه اليقظة العربية الثانية والصراع مع إسرائيل ويرى فيه أن السلام إذا لم يكن الآن فلا وقت آخر يمكن أن يكون فيه. والقسم الأخير من الكتاب يتحدث فيه عما يسميه بالقوى الثالثة ودورها في المعركة من أجل التعددية بوصفها قوى خارجة عن تيارات الصراع التقليدي في العالم العربي.

ملاحظة على سبيل التأكيد:

في ملاحظته الأولية للقارئ التي تأتي بعد أن أنجز الكتاب وبعد أن تبدلت الكثير من المعطيات التي وضع الكتاب على أساسها، والتي جرت أغلب أحداثها على مسرح الوطن العربي منذ ٢٠١١ وما تلاه، يؤكد صحة أطروحاته، إذ يرى أن الالتزام بقواعد التعددية وتجاهل الإرادة الشعبية سواء كان ذلك من القوى العلمانية أو من القوى الإسلامية أو من غيرها، هو السبب في عدم إنجاز تحول إيجابي حتى اللحظة، فالدستور الذي أعدّه الإسلاميون في مصر تجاهل إرادة عدد كبير من المصريين؛ مما جعل الجهة المقابلة تصطف ضد الإسلاميين فأنتجت نظاماً يلغي الإسلاميين من المشهد





معركة من أجل التعددية

خريجين قادرين على المنافسة في سوق الوظائف عالمياً، كما أنها تميل إلى الاستبدادية وليس فيها أي مجال للحوار أو النقاش ويتم تقديم محتويات الكتاب على أنها حقائق لا تقبل الجدل. ويخلص المعشر إلى أهم الخطوات اللازمة لإصلاح التعليم وتمثل بدعم التعليم من خلال دعم التجديد والإبداع وتشجيع الطلاب على الإنتاج وتسهيل ذلك لهم، كما يجب أن لا تستمر المدارس بتقييد اختصاصها على اكتساب الحقائق فقط بل يجب أن تعتمد تعريفاً للمعرفة يشتمل على التنمية الاجتماعية والعاطفية أيضاً، ويجب على الدول العربية أن تعلم الطلاب الصغار ما الذي يعنيه أن يكونوا مواطنين يشاركون ويساهمون في مجتمعاتهم بدلاً من التبعية. ويبين المؤلف أن الصراع في العالم العربي طوال الفترات الماضية قد تقلص لينحصر في طرفين رئيسيين، وهما القوى التقليدية المتشبثة بالسلطة والتي تشكلت داخل شبكات مصالحها، والقوى الأخرى هي قوى الإسلام السياسي باختلاف مشاربها وأنواعها؛ لذلك يرى أنه لا بد من وجود قوى ثالثة قادرة على تحمل مسؤولية تنفيذ التعددية من خارج هاتين القوتين التقليديتين على أن تقوم على ثلاث قيم أساسية: التعددية، والاعتماد على أساليب سلمية فقط، والتشاركية.

الصراع العربي الإسرائيلي؛

على الرغم من أن هذا الموضوع يمثل أهمية كبيرة في مسار الاستقرار والبحث عنه في المنطقة العربية، وأن الصراع العربي الإسرائيلي أهم عائق أمام حصول هذا الاستقرار، فإن وجود هذا الموضوع في هذا الكتاب قد وجد كما يبدو لتحقيق غايات تتعلق بسياسة المؤسسة التي يكتب في ظلها وتحت رعايتها. صحيح أن له ارتباط وثيق باليقظة، ولكن موضوع التعددية له ارتباط وثيق بالجانب الداخلي للشعوب العربية. يناقش المؤلف في هذا الجانب أهمية حصول السلام بين الجانبين العربي والإسرائيلي الآن وإن لم يحصل ذلك فلا يمكن أن يكون في المستقبل، وهو يقول إن أمام إسرائيل خيارين إما القبول بتوطين الفلسطينيين داخلها ومعنى هذا أن يصبح اليهود أقلية، أو القبول بحل الدولتين، وهو الحل الذي ينادي به المعشر والأمريكان.

ويرى المعشر أن الشباب في فلسطين لم يتحركوا على غرار ما عمل الشباب في تونس ومصر، ولو تحركوا ربما لأنجزوا شيئاً يذكر سلمياً على مستوى حل القضية والوصول بها إلى مستوى مقبول عالمياً، ولكن قد يغيب هنا على المعشر مقدار العنف الذي تقوم به إسرائيل تجاه الفلسطينيين وأن ما قامت به الأنظمة العربية القمعية لشعوبها ما هو إلا صورة مصغرة لما يمكن أن تقوم به إسرائيل.

الكتاب: اليقظة العربية الثانية والمعركة من أجل التعددية

المؤلف: مروان المعشر

المترجم: عماد إبراهيم عبده.

الناشر: المكتبة الأهلية للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، 2014م.

عدد الصفحات: 229 صفحة.

● شاعر وأكاديمي يمني



إذ لم يظهر التزاماً بالتعددية، وبذلك يكون الطرفان قد فقدوا قداستهما وسوف تعتبر الجماعات مسؤولة عن نجاح برامجها أو فشلها في تلبية احتياجات الناس. ويمر من خلال هذا التقييم السريع على تونس ومصر وسوريا والبحرين والأردن والمغرب، مفضلاً بصورة مفصلة طبيعة التحول وحركة التغيير بناء على معيار التعددية، ففي حين يرى أن نجاح حركة التغيير من الأدنى قد نجحت في تونس فإنها في المغرب مثلاً قد نجحت عبر حركة التغيير من أعلى واستباق الشارع بذلك.

العوامل الأساسية لبناء التعددية:

تكمن في القسم الثاني من هذا الكتاب الحمولات الفكرية التي يضعها المؤلف لبناء مجتمع حديث يؤمن بالتعددية فكراً وسلوكاً، وقد قدم هنا مفهوماً لها بأنها الالتزام السياسي بالتنوع في جميع الأوقات. وتعني أنه ليس لأي حزب احتكار الحقيقة وليس بإمكان أي حزب أن يفرض وجهة نظره على بقية المجتمع. وينبغي مثل هذا الالتزام أن يشتمل على تطوير نظام ضوابط وتوازنات يعمل على إعادة توزيع السلطة بعيداً عن السلطة التنفيذية ونحو السلطتين التشريعية والقضائية. وقد وضع في المقام الأول التعليم والفكر والثقافة وإصلاحها في سبيل الوصول إلى القبول بالتعددية، إذ يرى أن الفطرة البشرية والغريزة لا تقبل التعددية، إذ لا تكتسب التعددية إلا بالتعلم، فالتكتل شيء فطري. وقد عملت الأنظمة العربية على تكريس الثقافة الوطنية والإقليمية وترسيخها على حساب الاختلاف في الثقافة والرأي، فالتعليم جزء أساسي في تغيير هذه المفاهيم وإن كانت نتيجته لن تأتي إلا على المدى البعيد.

ويلقي الضوء على الأنظمة التعليمية الحالية مبيناً أن خصائصها تقوض الإبداع وتمنع التفكير الحر وتنتج خريجين مدربين بشكل سيء، وقد فشلت تلك الأنظمة من إنتاج

تعريف الاعتدال بناءً على المعطيات الجديدة في المنطقة، إذ يرى أن الاعتدال كان في السابق مأخوذاً من الموقف من إسرائيل بغض النظر عما يعتمل داخل تلك المجتمعات من قمع للحريات وعدم احترام لقواعد التعدد وقواعد حقوق الإنسان، فهو يقول إن الاعتدال العربي يحتاج لإعادة تعريف؛ لكي يشتمل على قضايا محلية مثل التنوع السياسي والتسامح الديني والتشاركية.

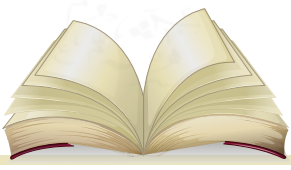
إن حديثه عن الاعتدال وعلاقته مع إسرائيل وقضايا الإصلاح السياسي قاده إلى مناقشة الجماعات الدينية واطهارها في بداية الأمر بوصفها فزاعة لتخويف الداخل والخارج ثم ما لبثت هذه الفزاعة أن أفرزت ظهور العديد من الحركات والأحزاب الدينية، حيث وجدت تلك الجماعات فراغاً في الجانب الاجتماعي الذي تركته الأنظمة وفراغاً سياسياً أيضاً نتيجة تجريف الحياة السياسية أمامها.

وقد قسم المؤلف حركات الإسلام السياسي إلى قسمين رئيسيين القسم الأول الحركات الإقصائية العنيفة التي تشمل القاعدة وما تفرع بعد ذلك عنها، وكذلك السلفية الجهادية وحركة حماس وحزب الله بوصفها حركات مقاومة عنيفة. والقسم الآخر هي ما يسميها الحركات السلمية وقد مثل لها بأربعة نماذج هي حزب العدالة والتنمية في مصر كما يقول في الكتاب ويبدو أنه يقصد حزب الحرية والعدالة، وحزب النهضة في تونس، وحزب العدالة والتنمية في المغرب، وجماعة العمل الإسلامي في الأردن. وفي هذا التقسيم نوع من عدم التدقيق فيبين هذه الحركات تداخل إذ تعد حركة حماس مثلاً فرعاً لحركة الإخوان المسلمين في فلسطين في حين أن هذه الحركات الأربع في مصر والمغرب والأردن وتونس هي امتداد لحركات الإخوان المسلمين على ما فيها من اختلاف نتيجة للتراكم المعرفي للمتمتعين لها من بلد إلى آخر.

فالمنطلق الفكري والأيدولوجي لحركات الإسلام السياسي في أغلبها واحدة، وإذا كان المؤلف قد أصبغ الصورة الإيجابية لعمل تلك الأحزاب في البلدان العربية، فإنه حين وقف لتقييم أداء جبهة العمل الإسلامي في الأردن فقد كان يبدو أكثر دقة حيث إنه في موقع قريب يسمح له بالتعمق والتقييم بشكل أدق من النظرة العامة التي جعلته يبنى أحكاماً على تلك الحركات في البلدان الأخرى مع أن أغلب تلك الحركات يقع في الأخطاء ذاتها في مختلف البلدان التي تعمل فيها.

إعادة تقييم:

يتساءل المعشر بعد ثلاث سنوات من بداية حركة اليقظة كما يراها عن الحكم الذي يمكن أن يصدره على هذا التغيير. وهو إذ يتساءل يُقدم الإجابة على شكل تقسيم البلدان إلى قسمين بحسب الوقت المتاح أمامها للإصلاح، فهناك دول مازال أمامها وقت لكي تصلح ذاتها وتحمي نفسها وشعبها، ودول لم يعد لديها الوقت الكافي فاستسلمت بعضها لإرادة الشارع وقاوم الآخر هذه الإرادة العامة ووقف ضدها وماتزال، ومن وقف هم المسؤولون المتقاعدون وأجهزة المخابرات ووجهاء النظام بوصفها الأكثر مقاومة للتغيير حتى عندما يفكر الحاكم نفسه بذلك. ويرى بأن الإسلاميين فقدوا قداستهم عند دخولهم المعتزك السياسي، والعلمانيون أيضاً فقدوا قداستهم ومصداقيتهم



عن الدولة المدنية وتجاوز الاس

أحمد الزعبي *

يحاول هذا الكتاب تقديم أفكار تنبع من فهم مقاصدي وسنني لتعزيز ما يُسمى هنا «دولة مدنية بمرجعية مقاصدية». وفي هذا السياق ينقد د. جاسر عودة الأطروحات الإسلامية الحالية في مجال السياسة ويحاول تصوير خطوط عريضة لنموذج مدني تعددي وهذا الهدف بالنسبة إليه هو هدف مرحلي وليس نهاية المطاف في الإصلاح المنشود، الذي لا يكتمل إلا بتجاوز هذه الدويلات المستوردة نفسها، وهو التجاوز الذي لا يتناقض مع الشعور الوطني.

كما يرى المؤلف أنه لا بد من العودة إلى شكل من الوحدة الإسلامية الواسعة والمؤثرة في مسار البشرية. وبرأيه، هذه الوحدة العامة لن تتحقق من دون خطوة مدنية الدولة والتخلص من كابوس الاستبداد بصورة كافة وإعادة تعريف النظام السياسي ليكون وسيلة لتحقيق مصالح الناس وسياسة تنوعهم بحكمة وسلامة.

وفي سياق البحث نفسه رأى د. عودة أهمية خاصة لمراقبة أصولية ومراجعة نظرية لقضية تسييسه، ألا وهي قضية «المرجعية الإسلامية» والسؤال: ماذا نعني بالمرجعية الإسلامية في شؤون السياسة ومجتمع اليوم؟ بات سؤالاً مهماً وإجابته أثر كبير في تطوير النظام المنشود الذي نطلق عليه اسم «إسلامي».

الإسلامية والأخلاقية السلمية للموضوعات المطروحة في واقعنا المعاصر. وقد انحدرت إلينا كلمة التحليل analyse في علوم السياسة من كلمة أثالوسيس اليونانية التي تعني الحلحلة أو التفكيك والذي يخطر في بال المرء حين يصادف كلمة التحليل هو تحويل الشيء أو نقله إلى مكونات أبسط أو تقسيم الشيء إلى أجزاء أبسط وهو ما نجده في القواميس اللغوية.

وجاء كتاب أرسطو فكان تطوراً نوعياً في طريقة التقسيم أو التجزيء إذ قدم فيه لأول مرة مفهوم البنية أي الربط بين المكونات منطقياً.

ويرصد تطور المفهوم وتجده عبر الزمن، ويشير إلى تجدد سنة الله في خلقه وحكمه على عباده ونعمته وفضله، فليس هناك شيء ساكن وثابت إلى الأبد سواء كان في العالم المادي أو العوالم المعنوية، بل إن الدين نفسه يتجدد فهما وتنزيلاً وتطبيقاً وفي الحديث: «إن الله يبعث على رأس كل مئة عام لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها». ولكن المفاهيم السياسية الرئيسية تتجدد ببطء ولا تتغير إلا عبر القرون بتغيير ما تطلق عليه الفلسفة المعاصرة «رؤية العالم» (ص 39).

وقيم المجتمع تشكل جزءاً آخر من «رؤية العالم» التي أشرت في تعريف مفاهيم السياسة والنظم التي قامت عليها.

بعد ذلك يتطرق المؤلف إلى استيعاب تعدد أبعاد المفهوم في الواقع المعيش، وهناك وجوه أو جوانب أو أبعاد لكل مفهوم، وهي زوايا من النظر للمفهوم نفسه وليست بالضرورة أجزاء تكونه بتركيب معين ولا من قضية سياسية أو سياسية معاصرة إلا ولها أبعاد متعددة ينبغي أن تدخل كلها في تحليل تلك القضية والتعامل معها، كالبعد الاجتماعي والاقتصادي والأمني والبيئي والإعلامي الخ.

وأما تاريخياً فقد حدث خلط في قطعية الثبوت بين ما روي تواتراً كتاب الله تعالى والأحاديث المتواترة. وتصحيح المفاهيم في هذه المجالات مهم في سبيل فتح الباب للتعددية في الفهم والتنزيل.

ويشدد الكاتب على ضرورة الاهتمام بالبعد المقاصدي والقيمي للمفهوم، فقد عاش العقل الإسلامي طويلاً في ضعف أو انعدام لسؤال «لماذا؟» مما أدى إلى الاقتصار في تحليل المفاهيم والمصطلحات على دلالات الأنفاظ أو العلاقات السببية فقط، وانتهى بنا القصور في البحث في المعاني

وعى شعبي اجتماعي وسياسي يضمن بناء دولة مدنية «تعددية» تبني سياساتها على أسس أخلاقية.

ويدعو إلى ثورة أخلاقية، لأن الأزمات في بلادنا أخلاقية، لذلك فهو يعجب لأناس يقولون إن «إرهاب الدولة الذي يوصفي المعارضة الشرعية جسدياً وينتهك حركاتهم مشروع أخلاقي».

كما أن بعض الإسلاميين يمارسون السياسة الاستبدادية وعلى الطريقة المكيفلية التي تغلب سيطرة الحاكم واستقرار كرسيه على حدود الأخلاق والمصلحة العامة الحقيقية.

ومن ثم ينتقل ليحدد معالم أزمة الفكر الإسلامي، الذي يركز على البعد الخاص بالمتدينين فقط، ويهمل البعد العام والقضايا التي تهم الناس كل الناس.

من هنا يدعو المؤلف للبحث عن مقاصد الشريعة، والتي هي منظومة القيم الإسلامية والتي تملئ ضبط الممارسات بطريقة أخلاقية. بعد ذلك ينتقل إلى الخلفيات التاريخية للاستبداد، حيث يروي التاريخ كيف انحرفت القيادة السياسية للأمة بعد الخلافة الراشدة، كيف تحول مال الله الذي هو مال الأمة إلى مال الحاكم، وكيف تحولت المسؤولية إلى مغنم، والنيابة إلى تسلط، والشورى إلى شكليات، والجماعية الأممية إلى فردية مستبدة، والخلافة الراشدة إلى ملك عضوض.

وعلى الرغم من ازدهار الحضارة الإسلامية في المجالات الأخرى كلها، فقد مرت الأمة الإسلامية في مجال السياسة بتاريخ طويل من الاستبداد بالأمر وفساد الحكم.

ويشير عودة إلى أن التعددية السياسية من السمات الأصلية للمجتمعات البشرية غير الاستبدادية كما يتصورها الإسلام، اتساقاً مع فطرة الناس وسنن الله ودرس التاريخ.

ويحدد هدف هذا البحث، محاولة تقديم أفكار تنبع من فهم مقاصدي وسنني لتعزيز ما يسميه «دولة مدنية بمرجعية مقاصدية».

الفصل الأول: التحليل المنطومي للمفهوم المركب

يشير المؤلف إلى الحاجة الملحة إلى تجديد وإعادة النظر في المنهجية التي بُني عليها علم «السياسة الشرعية» كما رسمت ملامحه الكتب والدراسات المختلفة في تراثنا الإسلامي، حيث تتمكن من المقاربة

الكتاب: التقسيم والمضمون

يتوزع الكتاب على ثلاثة فصول: فصلان نظريان وفصل تطبيقي. أما الشق النظري التأصيلي، فيبحث في فصلين موضوعين: أولهما فصل في منهجية تحليل المفاهيم السياسية ويتناول مفهوم الدولة المدنية، وثانيهما؛ فصل يبحث في أصول ومنهجية الحكم على «المرجعية» في المجال السياسي بناءً على مقارنة نقدية لمرجعات إسلامية مختلفة، منتهياً إلى طرح مقاصد الشريعة كمرجعية في تلك الشؤون.

أما الفصل التطبيقي فيتناول تصور «الدولة المدنية» المنشودة من بُعد التعددية السياسية الشاملة باعتبارها الخطوة الثورية الأساسية التالية للتخلص من آفة الاستبداد.

«الشعب يريد إسقاط النظام» كانت صيحات الشارع العربي، واستمر الحلم شهوراً ظن خلالها من ظن أن «الياسمين هزم البندقية»، وأن السلمية أقوى من الرصاص»، وأن «الأمة قد عادت إلى الإسلام»، ولكن، سرعان ما اصطدم الحلم بالواقع وكشفت الحقيقة الخيال، واتضح أن «النظام» المستبد عميق ومتغلغل في المجتمعات العربية.

صار الإنسان الثوري العربي بين فكرين نقيضين أحلاهما مر: إما فكر «سلمي» ساذج يضحى بأفضل شباب العالم العربي، وإما فكر عنيف ومنحرف اجتذب ضحايا الإرهاب الغربي.

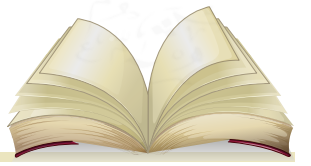
من هنا يدعو الكاتب إلى تغييرين مهمين: الأول على صعيد بناء الإنسان، والثاني بناء الدولة.

أما الإنسان، فقد أكدت الأحداث أن عندنا مشكلة كبرى في بنائه خلقياً وفكرياً وثقافياً ودينياً وصحياً ومهنياً واجتماعياً. واتضح أن الإصلاح السياسي الجزئي في أعلى سلم السلطة لن يغير الاستبداد ولن يصمد من دون إصلاح تعليمي وثقافي واجتماعي وفني وإعلامي.

أما «الدولة» في العالم العربي، فأثبتت الأحداث أن خلافاً فادحاً في بنائها ولا يعزز إلا الاستبداد والفساد بكل أنواعه، والاستبداد الأمني والعسكري بالقرار السياسي.

ويرى أن الخطوة الأولى للخروج من الاستبداد هو في الوصول إلى





تبداد وتحقيق مقاصد الشريعة



والغايات إلى الجمود على المقتولات، وضعف الجراءة على الإبداع بدءاً من إنكار الأشاعرة أن أفعال الله تعالى «معللة» بأغراض إلى إهمال المقاصد والحكم في أدوات الاجتهاد المعاصر.

الفصل الثاني: ما معنى «المرجعية الإسلامية» في سياق الدولة المدنية؟ هذا الفصل يطرح مقاصد الشريعة كمرجعية للدولة بمعنى: غاية الوجود، ومصدر الأخلاق، ومستند الفكر، وعلامة الصحة، ومرد الخلاف، ودليل البرهان، ومركز الحركة، ومعياري النجاح.

ويناقش عدداً من المرجعيات الإسلامية المختلفة:

مرجعية التاريخ الإسلامي: بعض الذين يتناولون السياسة الشرعية في عصرنا يرجعون إلى أحداث تاريخنا الإسلامي منذ عهد الخلافة الراشدة إلى زمن العثمانيين، كي يستدلوا على مشروعية قرار أو مؤسسة أو نظام ما يتعلق بالسياسة. لكن منهج كتابة التاريخ نفسه شابه عدة إشكالات حالت دون الاستفادة من تاريخ المسلمين الحقيقي، فقد طغى عليه التأثير السلطاني على حساب التأريخ للحضارة والنشاط العلمي والفني والثقافي والتفكير في الحراك الاجتماعي.

ويشير المؤلف إلى اتجاهات مختلفة في التعامل مع الموروث التاريخي، الاتجاه الطوباوي التمجيد، المنهج التبريري الاعتدالي، الاتجاه النقدي الإصلاح، الاتجاه النقدي التفكيكي.

مرجعية الفقه الإسلامي: ينظر كثير من الباحثين في مسائل السياسة من وجهة نظر الإسلام في هذا العصر على أنها مسائل تنتمي حصرياً إلى «باب» أو فصل السياسة الشرعية في الفقه الإسلامي. ومعنى الفقه هو الفهم والتصور والإدراك الذي يعبر عن فهم الفقيه لحكم الله تعالى وليس بالضرورة «حكم الله» نفسه، وإجماع الفقهاء دليل مدعى في مسائل كثيرة.

وأحد الأسباب الرئيسية لتزايد الجمود ومقاومة التجديد في الفقه الإسلامي أن دائرة «القطعي» أو «الثوابت» ظلت تتوسع على مدى القرون، وزعم الزاعمون أن «باب الاجتهاد» قد أُلغى.

ولكن مذاهب الفقه الإسلامي نفسها هي تطور تاريخي طبيعي لاختلاف الزمان والمكان، وظهرت في عصر ما بعد الرسول اجتهادات عدة للصحابة، ومع توسع الدولة الإسلامية، واجه الصحابة خبرات جديدة بتفاعلهم مع أقوام جدد من حضارات مختلفة (ص 101).

مرجعية السنة النبوية الشريفة: والسنة هي ما رواه الصحابة ووصل إلينا من أقوال النبي محمد «وأفعاله وتقريراته. وإذا دل الحديث الشريف على حكم لا وروده في القرآن الكريم بشكل مباشر، فإن المذاهب كلها تقبل الأخذ بالحكم الذي ينطق به الحديث، على ألا يكون الحكم خاصاً بالنبي».

وأضاف بعض المالكية والحنبليين صنفين آخرين إلى أفعال النبي، هما أفعال يفعلها بالإمامة، أي بوصفه قائداً، وأفعال يفعلها بالقضاء، أي بوصفه قاضياً.

وكي يعتبر الحديث الشريف صحيح النقل، لا بد أن يكون صحيحاً في سنده ومتنه معاً، وكما يعتبر الحديث صحيح المتن يجب أن يكون متنه صحيح اللغة، وألا يتعارض مع حديث آخر، وألا يتعارض مع العقل والقياس بحيث لا يمكن التوفيق بينهما، والتصحيح من جهة السند يتطلب عدداً من الشروط، فحامل الحديث لا بد أن يكون بالغاً، وأن يكون معروفاً بالضبط أي قوة الذاكرة، وحتى يروي الحديث لا بد أن يكون الراوي بالغاً مسلماً تقياً ضابطاً، وأن يكون السند متصلًا بينه وبين النبي - ليس فيه انقطاع، أي في لقاء كل راوٍ بشيخه.

مرجعية القرآن الكريم: القرآن الذي بين أيدينا اليوم هو المصحف نفسه الذي كانت عليه النسخ التي أقرها الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وأمر بحرق كل النسخ الأخرى قطعاً للنزاع في أي تفاصيل. ويخوض المؤلف في بحث مفصل عن أنواع الألفاظ وموقف المذاهب الفقهية منها

نظام الخراج، ونظام الديوان، واقتبس معاوية نظام البريد، (ص 167). وعلق الشيخ محمد الغزالي على القائل إن التعددية الحزبية والانتخابات بدعة، بأسلوبه الخاص قائلاً: «قال لي متعالم كبير إن الانتخابات بدعة! قلت له: وسفك الدم واستباحة الحرمه هو السنة؟ قال: إن الغوغاء لا رأي لهم. قلت: ألم يكن هؤلاء الغوغاء سواد الجيوش المقاتلة مع هذا وذاك؟ قبلناهم مقاتلين ولم نقبلهم ناخبين؟».

ويتحدث عن الحرفية في تقليد النظم السياسية التاريخية، مشيراً إلى موقف أبو الأعلى المودودي الذي يبرر تصور الحاكم المطلق المستبد، فالأمير لا يلزم بالمشاورة أصلاً على أن كثرة العدد ليست ميزاناً للحق والباطل، فالأمير في تصوره يمكنه أن يخالف أهل الشورى كلهم ويقضي برأيه المنفرد، ولكنه ذكر أن على مجلس الشورى أن يراقب الأمير مراقبة شديدة ولهم أن يعزلوه إن اتبع الهوى. من هنا يتساءل الكاتب هل يقتصر الهوى على المستوى الفردي دون الاستبداد؟

بعدما فرغ من المنهج الحرفي، ينتقل إلى معالج المنهج الثاني لشرعنة الواقع المستبد ألا وهو المنهج التبريري الذي يعتذر لحقائق مسبقة دون أن يحاول تحسينها أو قدها أو تغييرها (ص 174).

فمثلاً جعل محمود محمد طه «تحقيق الاشتراكية» مقصداً للإسلام نفسه، بينما أول محمد خلف الله مفهوم الشورى على أنه «سلطة تصويت الأغلبية»، فيما بحث عبد العزيز ساشادينا عن الأصول الإسلامية للتعددية الديمقراطية في القرآن. مستنتجاً أن أياً من التأويلات لا يصح دليلاً.

في المقابل أشار إلى تلافي راشد الغنوشي ومحمد خاتمي لخطأ التبريريين حيث تم تبني الديمقراطية دون تأويل مباشر لنصوص القرآن وإنما عن طريق الاستدلال المنطقي.

ويلفت إلى أن مثل هذه التبريرات وقع في التاريخ الإسلامي ثم أضحت اليوم جزءاً لا يتجزأ مما يحسبه الناس «تشريعاً إسلامياً يصعب نقده، وعلى سبيل المثال الأحكام السلطانية للماوردي».

إن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز أن تكون أداة في يد ذوي السلطة المادية أو الناعمة حتى يبرروا بها ما يشاؤون، ولا يجوز أن تعاق عن أداء دورها المتجدد مع الأجيال القادمة حينما تتجدد حياة الناس ومعاشهم.

ويختتم بأن التغيير الحقيقي المنشود في العالم العربي والإسلامي لا بد أن يبدأ بتغييرين مهمين في بناء الإنسان وبناء الدولة. وأن الدولة المدنية التعددية مرحلة ضرورية لتجاوز الاستبداد العسكري والأمني بالقرار السياسي، واحتكار السلطة لمجرد التحكم في وسائل العنف الرسمية.

ويحدد أن أكبر مشكلات البرامج «الإسلامية» المعاصرة هي التركيز على القضايا الجزئية التي تخص المتدينين أكثر من التركيز على البعد الإنساني الذي يشمل القضايا والهجوم الكبرى وهي أولى في الميزان الإسلامي الحقيقي. مشدداً على مقاصد الشريعة وهي منظومة القيم الإسلامية التي تعبر عن العدل والخير والحق والجمال والأخلاق، وترتب الأولويات السياسية بطريقة أخلاقية، وتدفع القرار العام نحو تكامل المنهجية وتعدد أبعادها، وتصل الضمير الإنساني بالله تعالى (ص 287).

الكتاب: الدولة المدنية: نحو تجاوز الاستبداد وتحقيق مقاصد الشريعة

المؤلف: جاسر عودة

الناشر: بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط 1، 2015 الصفحات: (319 صفحة).

* كاتب لبناني

والتقسيمات المعتمدة (ص 119). مرجعية مقاصد الشريعة: حيث تتكامل المرجعيات: يحدد هذه المقاصد بالمنهج الذي يكون أصلاً مرجعياً رئيساً في قضايا السياسة. فإنزال الشريعة لم يكن عبثاً ولكنه لتحقيق مصالح وغايات وأهداف ومعان معينة. فالعدل ورفع الظلم مقصد «عام» ورئيس.

الفصل الثالث: الدولة المدنية سياسياً: التعددية في ضوء مقاصد الشريعة

هذا الفصل يفصل في موضوع الخصيصة ذات الأولوية في المرحلة الحالية، ألا وهي: التعددية السياسية. فسئل الله تعالى ودرس التاريخ وحقائق الواقع تدلنا على أن التعددية في معناها الحقيقي ضرورة سننية وثقافية واجتماعية قبل أن تكون نظاماً حزبياً تتفق أو تختلف معه، وهو يرى أن التعددية المجتمعية والثقافية هي الضمان والحماية والأساس لتعددية سياسية حقيقية.

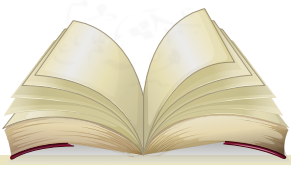
ويتحدث عن خدمة المنهج الحرفي في خدمة الاستبداد، والحق أنه لا توجد نصوص شرعية مباشرة سواء في القرآن أو السنة تحدد ملامح نظام سياسي إسلامي معين، ولا آلية عمل هذا النظام تداولاً للسلطة ولا تحديداً للسلطات ولا صنفاً للقران.

ويُعطي نماذج للحرفية في فهم نصوص الولاء والبيعة والعهد والطاعة، مستشهداً بما كتبه عثمان بن معلم وأحمد إمام اللذان يقولان إن الحركات والأحزاب الإسلامية لا تخلو من المحذورات (ص 104)، وذكر منها الولاء والبراء على ما لم يعقده الله عليه من الكينونة داخل الحزب، واستشهدا بقوله تعالى: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر».

في المقابل انتقد د. صلاح الصاوي استحسان الولاء والبراء في موضوع «التعددية السياسية في الدولة الإسلامية». ورأى د. القرضاوي في تلك النظرة الحرفية تبسيطاً.

ويتطرق المؤلف إلى الحرفية في مفهوم البدعة والسنة، وقد ناقش القرضاوي في كتابه «فقه الدولة في الإسلام» مفهوم البدعة، فقال: «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها. وقد حضر الرسول خندقاً حول المدينة، ولم تكن مكيدة تعرفها العرب، إنما هي من أساليب الفرس أشار بها سلمان، واتخذ الرسول، خاتماً يختم به كتبه، حين قيل له إن الملوك لا يقبلون الكتاب إلا إذا كان مختوماً، واقتبس عمر





إمبراطورية التفويض السماوي.. الص

أمين منار *

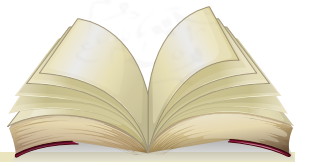
تشهد الصين في الحقبة المعاصرة تطوراً لافتاً على المستويين الاقتصادي والاجتماعي، بعد فترة من الركود والانكماش، الأمر الذي دعا العديد من الدارسين المهتمين بالدراسات الحضارية إلى البحث في الأسس العميقة التي تميز الصين والتي تشكل الدوافع الرئيسية لما يحصل من تحوّل في عمق المجتمع الصيني. إيماناً بأنه لا سبيل لفهم الصين المعاصرة، سواء كان هذا على مستوى البعد الجغرافي السياسي، أو على مستوى القوة الاقتصادية، أو على مستوى الهوية الاجتماعية والثقافية بمعزل عن تاريخ «وحدتها الإمبراطورية» السابقة. الأستاذ الإيطالي باولو سانتانجيلو المدرّس في جامعتي «الأورينتالي» في نابولي و«لاسابينسا» في روما، أحد المختصين الغربيين المميزين في التاريخ الحضاري الصيني، وصاحب المؤلفات الرصينة في المجال، منها «تاريخ الصين» بالتعاون مع ماريو ساباتيوني ٢٠٠٥، و«تاريخ الفكر الصيني» ٢٠١٢، إضافة إلى الكتاب الحالي الذي نتولى عرضه «إمبراطورية التفويض السماوي»، الصادر عن دار نشر إيطالية خلال العام الماضي، والمترجم من قبل مشروع كلمة الإماراتي خلال العام الحالي، بترجمة ناصر إسماعيل ومراجعة عز الدين عناية.

ونقصد هنا اليسوعيين الغربيين الذين كان لهم قصب السبق في الاتصال بالصين على مستوى حضاري وديني وثقافي. فقد أدرك هؤلاء عنصر الاستمرارية الاجتماعية والمؤسسية الذي يرتكز على مفهوم عقلاني للنظام الطبيعي، وقدموا الصين على هذا النحو كنموذج لأوروبا التي كانت تعاني من تغيرات واضطرابات اجتماعية وسياسية متواصلة. وفي هذا السياق، أوضحت آسيا، والصين على نحو خاص، تمثل كليهما نضياً للتاريخ نفسه. فقد حشر رانكه (Ranke) الصينيين ضمن أعراف «الركود الأبدى»، بينما ذهب شبنغلر (Spengler) إلى أن تاريخ الصين قد تكلس وتحجّر. ونطالع آراء مثيلة لدى توينبي (Toynbee)، الذي رأى في القرن الرابع عشر نهاية للحبوبة الصينية، وفيبر (Weber) الذي جعل من صفة الثبات التي تتسم بها الحضارة الصينية نقبضا لديناميكية والعقلانية الأوروبية الحديثة. واستوحى ماركس أيضاً وبلا شك رؤاه من مفهوم هيغل عن جمود آسيا وتحلّفها. وتعود نظريته في ما يُعرف بنمط الإنتاج الآسيوي إلى هذا التوجه الغربي العام في تقييم الشرق. ووفقاً لتلك النظرية، التي بات فيها المجتمع الآسيوي يتّسم بسلطة مستبدة للدولة تسيطر بموجبها على مجموعة من القرى المنعزلة والمكتفية ذاتياً بصفقتها المالك الأواحد للأراضي، عمل كارل أوغست فيتفوجل (K. A. Wittfogel) على تطوير نظريته حول الحضارات «النهرية» والسلطة الشمولية. فقد أدت الحاجة إلى تشييد أعمال معقدة للري، تُعدّ ضرورية للإنتاج الزراعي لا سيما في البلدان الآسيوية، إلى تكوين جهاز بيروقراطي ضخم عمل على تركيز السلطة الاقتصادية والسياسية، وحرمان بقية المجتمع من كافة الحريات. وعلى العموم ترتكز نظرية نمط الإنتاج الآسيوي، التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً برؤية مركزية أوروبية للمسار التاريخي، على تصور نمطي للتاريخ الصيني. إذ يرى سانتانجيلو أن الأمر هنا لا يتعلق بإنكار أهمية الأشغال النهرية في التطور الاقتصادي والاجتماعي للإمبراطورية الصينية، إلا أن

والسياسي في النظام التقليدي الصيني، يمكن اعتبارها عوامل مثبتة للتطور نحو النظام الرأسمالي. بيد أن باحثين آخرين عارضوا هذا الطرح استناداً إلى أن جملة من العوامل المذكورة والمعوقات لم تكن أكثر سلبية من تلك التي وُجدت في ألمانيا قبل الثورة الصناعية، أو في اليابان خلال حقبة «توكوغاوا». إضافة إلى أن بعض التفسيرات الشائعة، مثل رفض الكنفوشيوسية للمذهب التجاري والسيطرة الحكومية المفرطة، تبدو تفسيرات نظرية أكثر منها واقعية إذا ما تأملنا مسار التاريخ الصيني. فقد صوّر المفهوم التاريخي المهيمن، الذي يرتكز على نظرية ما يسمى بـ«تفويض السماء» (تيانمينغ)، أي ما يشبه نظاماً طبيعياً شاملاً، الانتقال من سلالة حاكمة إلى أخرى وكأنه ميل ثابت لإرساء التوازن الذي قد يختل وينهار فيما بعد فيسوق هذا بدوره إلى الاضطراب وفقدان السلطة، وإلى صعود سلالة أخرى. ووفقاً لهذا المفهوم الدوري التعاقبي الذي يقوم على التناوب بين فترات من الانتظام وأخرى من الاضطراب، بات التاريخ مجرد تكرار دوري للمراحل نفسها. أدى هذا إلى أن يبدو المسار التاريخي الصيني على شكل موجات متكررة، وبصورة أكثر جموداً ربما مما هو عليه في الحقيقة. كما يعيد سانتانجيلو النظر في المقاربات الغربية الأولى التي شكّلت مرجعية رؤية في قراءة التاريخ الحضاري للمجتمع الصيني. حيث منذ الاتصالات المباشرة الأولى مع الصين، شهد العالم الغربي نقاشاً رمى أساساً إلى تأطير الحضارة والتاريخ الصينيين وفهمهما من خلال الأنساق والقوالب التقليدية، ومن ثمّ إلى إخضاع سمات هذه الحضارة للتقييم والمقارنة. وقد أثرت الرؤية التاريخية الغالبة في الصين التقليدية -التي يمكن أن نصفها بأنها دورية سلافية، تميل إلى إبراز عناصر الاستمرارية على حساب التحولات الكبرى الاقتصادية والاجتماعية، والإيديولوجية، والمؤسسية، والثقافية- تأثيراً عميقاً على الأوروبيين الأوائل الذين اهتموا بالدراسة المنهجية للحضارة الصينية في القرنين السابع عشر والثامن عشر،

لا شك أن كتاب «إمبراطورية التفويض السماوي» بالغ الأهمية من حيث تتبّع جذور النهضة الصينية، لما يتناوله من قضايا في غاية الراهنية مثل إشكالية التحديث، والعلاقة بالغرب، والتعاطي مع الموروث الثقافي والديني، وخوض الإصلاحات بشتى أشكالها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية. بموجب هذه القضايا، إضافة إلى الدور المتنامي للصين في التاريخ العالمي في القرن الحادي والعشرين، يعيد المؤرخ الحضاري باولو سانتانجيلو النظر في مسألة حضور الصين الإمبراطورية على المسرح العالمي وما حازته من أهمية جوهرية في قلب الأحداث التاريخية. فعلى إثر التحولات التي شهدتها العصر الحديث أخذت بعض البلدان الأوروبية بزمام المبادرة الحضارية، قامت خلالها بإعادة صياغة النظام الدولي برمته عبر إعادة «رسم خريطة العالم»، وخلق نماذجها العالمية. لكن الصين في هذا السياق لعبت دوراً بارزاً، ولم تتعرض مكانتها للانحسار وفقدان الفاعلية إلا مع حلول القرن التاسع عشر وفق رأي سانتانجيلو. حيث يرى صاحب كتاب «إمبراطورية التفويض السماوي» أن النقاشات المستجدة حول دور الإمبراطورية الصينية في الاقتصاد العالمي في الفترة السابقة واللاحقة للقرن الخامس عشر قد أسهمت في تجاوز المقاربات التقليدية ذات النزعة المركزية الأوروبية، التي ترى في الثورة الصناعية نتيجة منطقية للتفوق الأوروبي في المناحي الثقافية، والتقنية، والتجارية، وذلك في مقابل آسيا التي تتسم بالجمود، والاستبداد، والاحتفاظ السكاني. مرتبياً سانتانجيلو أن الدور الذي لعبه طلب الاقتصاد الصيني على الفضة في خلق سوق موحدة تجمع أوروبا وأمريكا وآسيا منذ القرن السابع عشر وإلى القرن التاسع عشر اعتمادا على تداول «البيزوس» الفضي الإسباني، كان له الفضل في تحقيق الوحدة النقدية الأكثر اتساعاً في عالم ما قبل الحقبة المعاصرة. ويدعم سانتانجيلو موقفه الرافض لقراءة التاريخ الحضاري من منظور غربي بقوله: سلط البعض الضوء على عوامل مختلفة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي





بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر

من التحديات لا عهد لها بها. وضعت الصدمة الهائلة الناجمة عن غزو «البرابرة الغربيين» ومعاينة الصينيين للتفوق العسكري والتقني للغرب الطبقة الحاكمة الصينية على نحو مُلح أمام إشكالية كيفية التصدي لهؤلاء الأعراب، وكيفية تقييم ثقافتهم. مع ذلك أرب جزء من المتأدبين أو ما يُطلق عليهم «الموظفون الأتقياء» (تشيونغوان) عن رفضهم الاعتراف بالمشكلة، وعارضوا الوصول لأي تسوية مع الأجنبي، واكتفوا بتجاهلهم أو باستنكار «انحطاطهم الأخلاقي». بئد أن هذا لم يكن يحل المشكلة الحقيقية المتعلقة بالتفوق العسكري الغربي وتهديداته المتصاعدة.

لكن الصدمة في الحقيقة كانت مريعة، ولم يقتصر الجدل على من يدعمون مسار الإصلاح، ومن يحملون دعاة الإصلاح مسؤولية تردي الأوضاع، بل زاد عليه جدل آخر بين الحداثيين أنفسهم والإصلاحيين. فقد كان دعاة الإصلاح منقسمين إلى فريقين متعارضين: فريق متغرب يرى الإصلاحات هدفا في حد ذاتها وليست وسيلة، وينظر إلى القيم الغربية على أنها مبادئ حديثة وعالمية جامعة؛ وفريق آخر يُميز بين جوهرية الحضارة الصينية، وتوظيف العلم والتكنولوجيا الأجنبية. ومع نهاية القرن التاسع عشر برزت ثلاثة تيارات رئيسية: الحداثيون ذوو «النصوص الحديثة» (جينوين) في محاولة لاستيعاب الصين الروح الغربية، والثوريون ذوو «النصوص القديمة» (غوين)، والقوميون. وهي انقسامات شبيهة بما لحق النخبة العربية في مواقفها المتباينة من الغرب.

ما إن حل النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى رجحت كفة الإصلاحيين على غيرهم، وهم حركة معروفة باسم «المناعة الذاتية» تستلهم أفكارها من المصادر الكنفوشوسية، والكنفوشوسية الحديثة، تسعى للتصدي للثورات الداخلية من جهة، وللضغوط المتصاعدة للقوى الغربية واليابان من جهة أخرى. عضدها بعض الساسة والمتأدبين، على غرار «تسينغ غوفان»، و«تسو تسونغتانغ»، و«لي خونغتشانغ»، وسعوا إلى الجمع بين التحديث التقني والمؤسسي للبلاد، ونشر القيم الأخلاقية. وقد أولى «فينغ غويفين» في عمله «اقتراح لتبني المعرفة الغربية» أهمية خاصة إلى تعلم العلوم والرياضيات، وشدد على دور الإنتاج الصناعي في المجال العسكري، وبدا مدركاً للتفوق الغربي في استغلال الموارد البشرية والمادية، إلا أنه من جهة أخرى أكد على سُمو حكمة التراث الصيني.

الكتاب: إمبراطورية التفويض السماوي.. الصين بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر.

المؤلف: باولو سانتانجيلو.

الناشر: دار نشر لاتيرسا (روما) «باللغة الإيطالية».

سنة النشر: 2014.

عدد الصفحات: 355 صفحة.

* باحث إيطالي من أصول مغاربية



عنها: «لم ترتبط إيطاليا، التي تقع في المحيط الغربي الكبير، بأية علاقات مباشرة مع الصين منذ القدم. وإبان حكم «وانلي» (Wanli) (1573-1620م) وصل أحد مواطنيها، ماتيو ريتشي، إلى بكين. رسم «ريتشي» خريطة للعالم تظهر فيها خمس قارات على ظهر البسيطة. وأولى هذه القارات هي آسيا التي تضم ما يزيد عن مئة بلد من بينها الصين؛ والثانية أوروبا وفيها أكثر من سبعين بلداً من بينها إيطاليا؛ والثالثة ليبيا «إفريقيا» وفيها ما يزيد عن مئة بلد؛ والرابعة أمريكا وتحتوي على أراض شاسعة وممتدة، وتنقسم إلى أمريكا الشمالية والجنوبية؛ والقارة الخامسة هي ماجيلانيا «القارة القطبية»، وهي القارة الأخيرة على وجه الأرض».

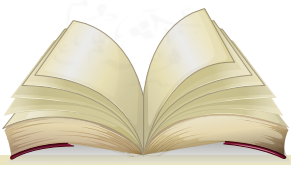
كان التواصل الأوروبي مع الصين، بواسطة اليسوعيين، فاعلا من جانب واحد، وما كان يحوز في الصين اهتماماً معتبراً لكونه لا يشكل تهديداً فعلياً. والواقع أن تسرب الوهن الحضاري للصين وفقدان المبادرة العلمية الثقافية مقارنة بالغرب على الساحة العالمية الحديثة، قد حال دون التنبه الفعلي للتهديدات الأوروبية رغم ما كانت تتطلع إليه القوى التجارية الغربية، أو «شياطين ما وراء البحار» كما سماهم الصينيون من هيمنة. لكن ذلك لم يمنح شرائح من المنتقذين والمثقفين الصينيين من التفتن إلى أن العالم ما عاد رقعا معزولة بل وحدة متأثرة بعضها ببعض، بعد أن بدأ تضيق الخناق الغربي على الصين وما تبعه من معاينة القوة الغربية الداهمة.

مع تطور الأحداث في القرن التاسع عشر في الإمبراطورية الصينية التي تعاني من أزمت اقتصادية واجتماعية طاحنة، وكان عليها في الوقت نفسه مواجهة اعتداءات متواصلة وجسيمة، وجدت الصين نفسها أمام واقع جديد

اختزال نشأة الدولة الصينية وأجهزتها في مجرد الاحتياج لهذه الأشغال يُعد تبسيطا مخلأ. وبهذا المنظور، ووفقا لنزعة مركزية أوروبية حديثة، جرى نفي التاريخ عن هذه الحضارة لأنها ثابتة لا تتغير، ولم يُعترف بفلسفتها لأنها غير منتظمة وغير منطقية، ولا اعترف بدينها لأنه لا يتفق مع معايير الديانات المتوسطة. وتباينت كذلك الأحكام والتقييمات الصادرة عن أناس كانوا على اتصال وثيق بالواقع الصيني، أو كانوا قد خطوا أولى خطواتهم في دراسته. فعلى سبيل المثال، بينما كان اليسوعيون «يبررون» الصينيين، ويرون أنهم كانوا سيعبدون الإله الحق استنادا إلى الدين الطبيعي، كان بايل (Bayle) على عكس هذا يؤكد أن الصينيين ملحدون يؤمنون بالخرافات، شيّدوا حضارة متفوقة. بئد أن ما يذهل الجميع هو ميل هذه الحضارة للتصل من التعلق بدين معين فضلاً عن ارتباطها بالوظيفة النفعية للدين، وبالتوليف بين المعتقدات المتباينة.

يعود سانتانجيلو إلى تتبع التطورات الحضارية التي حصلت في الصين. فقد تحققت أهم اكتشافات التاريخ البشري من الورق إلى الطباعة والبارود في الصين، خلال الفترة المتراوحة ما بين سلالاتي هان وتانغ، أي بين القرنين الثاني والثامن الميلاديين. أما أوروبا فقد شهدت أعلى معدلات إنتاجها الاقتصادي في أوج عصر الإمبراطورية الرومانية، ولم يحدث أن تخطت هذا المعدل حتى القرن الثامن عشر. وعلى النوازل نفسه، شهدت الصين في الفترة ذاتها معدلات إنتاج عالية جرى تجاوزها فقط في مرحلتين لاحقتين: المرة الأولى حوالي سنة 1000م في ظل حكم سلالاتي سونغ (960-1127م) وسونغ الجنوبية (1127-1279م)، ثم مرة أخرى أخيرة في منتصف فترة حكم سلالة مينغ تقريبا وفي الفترة اللاحقة. وقد تضاعف عدد السكان نحو سبع مرات ليرتفع من 60 مليوناً إلى 400 مليون نسمة، وذلك في الفترة الواقعة بين القرن السادس عشر وبداية القرن التاسع عشر. ولهذا السبب أيضاً تتسم فترة حكم السلالتين الأخيرتين، مينغ (1368-1644م) وتشينغ (1644-1911م)، بأهمية بالغة.

قبل العصور الحديثة كانت اتصالات أوروبا حضاريا بالصين شحيحة، وما كان لها دور فاعل في بلورة رؤية واضحة عن ذلك العالم النائي، ولم يحصل اتصال معرفي حقيقي سوى مع المبشرين اليسوعيين. فقد كانت إيطاليا بلداً قسماً بالنسبة إلى الصين في حقبة مينغ، وبدأ التعارف بين البلدين عبر المبشرين. وكما هو معلوم، فقد لعب اليسوعيون دوراً مهماً للغاية في العلاقات بين العالم الغربي والإمبراطورية الصينية. في هذا السياق، يبرز اسم اليسوعي ماتيو ريتشي (Matteo Ricci) الذي كان قد وصل إلى ماكاو في عام 1582 لينال إذناً بالإقامة بشكل دائم في بكين عام 1601م. ولم يقتصر دور اليسوعيين على نشر المسيحية والمعارف العلمية الغربية في الصين وحسب، بل أدوا دوراً مهماً في الوساطة الثقافية بين الحضارتين. ولنا أن نقرأ ما ورد في وصف إيطاليا في التاريخ الرسمي لسلالة مينغ لتعابن بوضوح المعلومات التي نقلها اليسوعيون



«أن نزهة» الركيزة الثالثة

محمد الشيخ

بعد قرون من ذكورية الفكر الفلسفي، ها هو آخذ في التآنت اليوم. فقد صار للفلسفة النسائية سلسلات نشرها، ومعاجمها الخاصة، ومظانها الأساسية، ومرجعياتها المعتمدة، ومتونها المخصصة، ومجالاتها المفردة (سلسلة دراسات في الفلسفة النسائية التي تصدرها مطابع جامعة أكسفورد وتشرف عليها ثلة من المختصات في الفلسفة النسائية بجامعة عريقة وتوزع في مجموعة من الدول وقد أصدرت لحد الآن ما يناهز أربعين عنواناً) .. ومن أهم مظان الفلسفة النسائية الجامعة: «النزعة النسائية والفلسفة: قراءات أساسية ...» لنانسي تونان وورزماري تونغ (١٩٩٥)، و«الفلسفة النسائية: من ألفها إلى يائها» لكاترين فيلانيفا غاردنر (٢٠٠٩)، والمعجم التاريخي للفلسفة النسائية للمؤلفة ذاتها (٢٠٠٦)، و«الفلسفة بصوت نسائي» لجانيت كوراني (١٩٩٨)، و«دليل بلاكويل للفلسفة النسائية» لإيفا فيدر كيتاي وليندا مارتن الكوف (٢٠٠٦) ...

أو تشاهد سيارتك الجديدة، أو أي شيء آخر يمتعك؛ تقول لنفسك: «إنني لا أريد أكثر من هذا»، أو إنك لا تفكر في أي شيء، فقط أنت تستمتع. على أنه يمكن أن يبدأ التأمل لأسباب كثيرة. مثلاً: في أعياد ميلادنا ن فكر هل نحن نسير في الاتجاه الصحيح؟ أو إذا ما داهمنا مرض خطير، أو عندما نقرب من نهاية الحياة، هنا يثور التساؤل: هل عشنا الحياة التي كنا نتمناها؟

هو ذا بالذات ما حدث لكاتبنا أريانا هوفينغتون. ففي شهر مارس من عام ٢٠١٤، طلعت علينا بكتاب فريد أمسى في أشهر معدودة أكثر الكتب مبيعا: «أن نزهة». ولا بد أن نقر، أولاً، بأن صاحبة الكتاب بذلت الجهد الجهد لكي يكون الكتاب في متناول القارئ العادي، حتى وإن حشدت فيه مئات المروييات والاستشهادات العلمية. وفيه وضعت أسس قواعد جديدة للحياة.

في مقدمة الكتاب تشرح الكاتبة دواعي التأليف. وهي تنطلق من يوم ٦ أبريل من عام ٢٠٠٧، وهو اليوم الذي انهارت فيه بمكتبها فجأة تحت وطأة تراحم الأشغال وإقبال جهنمي محموم على العمل الموصول. وكان أن انكسر عظم وجنتها، واحتاج حاجب عينها إلى أربعة غرز. كانت تشتغل ثماني عشرة ساعة في اليوم، سبعة أيام على سبعة، لكي تطور شركتها، ولكي تجد مستثمرين جدد، فكانت حياتها تعاني من انعدام توازن رهيب. والحال أن حادثة الانهيار هذه كانت بمثابة «ندارة». فكان أن قررت من حينها في خويصة نفسها أن تغير صورها للنجاح.

وكان السؤال الذي طرحته: لئن تأدى ما ظهر للناس على أنه نجاح باهر لها إلى حد انهيار الإنسان، فما الذي يُعلم عليه هذا الأمر؟ ذاك هو السؤال الناظم الذي قادها إلى إعادة التفكير في أولوياتها التي قادتها إلى ملازمة المستشفى، كما قادها إلى ما سمته «المعيار الثالث الناجح للحياة» في ما يتجاوز معياري المال

الأموال التي سارت على غير ما يرام». ذلك أنه حسب أريانا، فإن التعريف السائر بين الناس للنجاح. المال والجاه. ما عاد هو التعريف المناسب. إذ إن من شأن هذا التعريف أن يمتص منا رحيق حياتنا ونحن نلهث وراء النجاح، فلا يترك فينا بقية تبقى: «لئن نحن كنا محظوظين لدينا ٣٠٠٠٠ يوم للعيش، فلنحاول أن نتعهد أيامنا هذه بأفضل تعهد يكون»، فلا نمضي حياتنا لاهئين وراء النجاح.

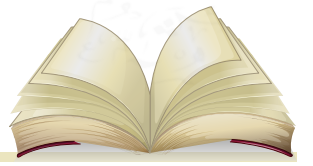
ذلك أن الإنسان يمضي سحابة يومه مستغرقاً منهمكاً مستهلكاً في عاديات الحياة اليومية ومجريات العيش وأمور الدنيا. وعادة ما لا يميل الإنسان العادي. بحكم انغماسه في اهتماماته اليومية. إلى إلقاء نظرة على مجمل حياته متدبراً إياها ومتأملاً فيها. على أنه قد يأتي على الإنسان حين من الدهر يلقي نفسه وقد هام في تساؤلات حول ما مضى من حياته ماذا فعل به، وعمّا بقي فيها من بقية. إن كانت هناك من بقية، وليس له من سبيل إلى التخبر عنها، اللهم إلا بافتراض أن ثمة بقية، على أنها بقية تبقى أبداً مجهولة المقدار ممتنعة التقدير. وهو يفعل ذلك إما لأسباب تخص حياته الشخصية. مرض، تجربة عاطفية فاشلة، فقد قريب أو حبيب أو صاحب، أو لأسباب خارجية، شأن الاطلاع على حياة الآخرين المختلفة ... وحين يتساءل يكون عليه أن يتساءل: كيف أمضيت سحابة عمري؟ ماذا فعلت بحياتي؟ هل عشت حقاً الحياة التي أستحق؟ ماذا سأفعل ببقية عمري إن كان في العمر بقية؟

تقول فيلسوفة الأخلاق الأمريكية جين كازيز التي كتبت كتابها الشهير «أهمية الأشياء: الفلسفة والحياة الخيرة» لكي تخصصه لمعنى «الحياة الطيبة». وهو سؤال الفلسفة الأخلاقية الجوهرية: «إننا لا نحصص حياتنا في كل يوم. تمر بعض أسعد لحظات حياتنا ونحن على حال لا تسمح بفضح أي شيء؛ فإنك إذ تنظر إلى طفلك، أو ترى منظراً من فوق قمة جبل،

وطبيعي أن يؤثر تأنيث الفلسفة في طبيعة المواضيع التي أمست الفلسفة المعاصرة تتناولها. ومن بين هذه المواضيع موضوع «أخلاقيات العناية». وهكذا، فإنه في عام ١٩٨٢ أنشأت عالمة النفس والفيلسوفة الأمريكية كارول غليغان (١٩٣٦-) من لفظ «العناية» مفهوماً أساسياً في الفلسفة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية المعاصرة في كتابها «صوت مختلف: من أجل أخلاق عناية» (١٩٨٢). وفيه دفاع عن المرأة بوصفها صوتاً مختلفاً: الصوت الذي لا يهتم بذاته ولا بالحكم الموضوعي وإنما بالعناية بالغير: ينشغل، ينهم، يهتم، يعنى، يسهر، يرافق، يصل، يرضى ... وهو اهتمام أخلاقي بالاعتبار الأول: الأ سيء إلى الآخر وألا يضر به. لكن هذه المزية غير معترف بها للنساء، رغم أنها تشكل جانباً جوهرياً في العلاقات الإنسانية بدونها ليس يمكن أن تشتغل لا الأسرة ولا الصداقة ولا صلات العمل.

وفي نفس السياق، في شهر مايو من عام ٢٠١٣ كانت وجهت أريانا هوفينغتون، في خطاب لها أمام حشد من الخريجين الجدد من جامعة سميت، وهي إحدى أشهر الجامعات في الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية، دعوة مؤثرة إلى إحداث «ثورة نسائية جديدة». وناشدت مديرة الشركة هذه ذات الأصول اليونانية، التي أسست مواقع إخبارية عديدة شأن Huffington Post، ثم World Post، والمتنفة، وربة البيت، والكاتبة مؤلفة أزيد من أربعة عشر كتاباً، والمرشحة السابقة لتولي منصب حاكم ولاية كاليفورنيا، وإحدى النساء الأكثر وجاهة ونفوذاً وشهرة وسلطة بالولايات المتحدة الأمريكية، ناشدت النساء الشابات اللواتي كن يصغين إلى خطابها بعدم الاحتماء بسقف الزجاج الذي كان يمنع العديد من النساء من أن يزدهرن في مسارهن المهني، وبالعامل على تغيير النظام المكسر، وذلك بالتعرض إلى «جذور





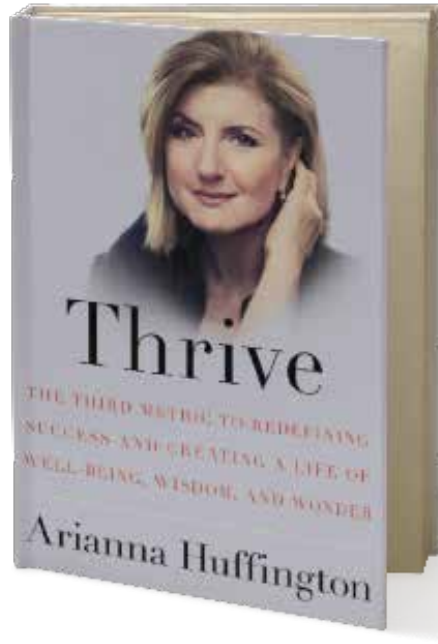
لإعادة تعريف النجاح

والجاء. وهي المراجعة التي أمست تسمى الآن «نظرية المعيار الثالث للنجاح، التي تنم عن الحاجة إلى تجاوز المعيارين الماديين الصنفين: الجاه الذي لنا، والمال الذي جمعنا. والذي عندها أن اعتبار المال والجاه في ذاتهما كأته جلوس على مقعد ليس له إلا قائمين. ففي لحظة معينة، لا بد للجالس عليه من السقوط، وقد يكون سقوطاً مدوياً، وكمن الناس يسقطون سر سقطه كل يوم بفعل استنادهما إلى هاتين الركيزتين. والحال أنه لا يمكن لبني البشر أن يحيوا وفق هذه الطريقة غير المتوازنة في العيش التي تقدم كل يوم ضحايا على مذبحها. كان إذن لا بد من التفكير في متكا جديد يعتمد عليه الإنسان في حياته من غير أن يخشى الوقوع. وما هذا المعيار الثالث؟

مدار هذا المعيار على الأمور التي تعد، حقاً، هامة بالنسبة إلينا، والتي عادة، وللأسف، نميل إلى نسيانها: تلك الأنشطة التي تستهويننا، تلك اللحظات التي نمضيها مع من نؤثر، تلك الأفعال الإحسانية التي نلتد بمزاوتها، تلك الأحاسيس بالإعجاب التي نبديها أمام منظر أو لوحة ... المعيار هو رفاهة عيشنا التي لا تقاس لا بالجاه ولا بالمال؛ أي ألا يحيى الإنسان حياة تنهك طاقته على العيش. ذلك أن النساء اللواتي تجدن أنفسهن في أوضاع مهنية شديدة الضغط تزداد خطورة إصابتهن بأمراض القلب بمقدار أربعين في المائة، لا سيما النساء في الثلاثين من عمرهن اللواتي يحيين حياة ضغط شديد. إن الثمن الذي تؤديه على النجاح لمكلف جداً، وهو غير مفر على المدى البعيد. والحال أن تحديد معيار النجاح الذي يجعل المرأة تقع أرضاً إن لم تكن تحضر قبرها بيدها لهو معيار اخترعه الرجل، وهو لا يلائم النساء، فضلاً عن أن يكون يلائم الرجال أصلاً.

وتدعونا الكاتبة إلى أن نطرح مجرد هذا السؤال على أنفسنا: كم ساعة ننام؟ الحال أن قرابة الستين في المائة من النساء اللواتي يتولين مسؤوليات الأبناء ومسؤولية الشغل يشكين من قلة النوم. والحق أن التضحية بالنوم لصالح المسار المهني لها تأثير بالغ وعميق وسلبي على إبداعية الإنسان وإنتاجيته وقراراته. وتظهر الدراسات العلمية أن لقلة النوم صلة مباشرة بكل الأمراض؛ لأن له تأثيراً على الضغط وعلى رخاوة العيش وهناءته وامتعه. فالنوم عادة غير مقدرة التقدير الذي تستحقه، مع أنه مخدر معجزة. إذ ثمة دراسات تظهر أن من شأن من ينامون بانتظام سبع ساعات في اليوم أن يصيروا أكثر كفاءة إبداعية، وأشد تركيزاً في أعمالهم، وأفضل استعمالاً لحدوسهم.

ومن منغصات النوم الحديثة التي نتحدث عنها الكاتبة عدم توقف الإنسان المعاصر عن بعث رسائل قصيرة عبر هاتفه الجوال أو عبر حاسوبه، وذاك



داء العصر الذي لا شفاء منه. لذلك تدعونا إلى ما تسميه «إزالة السموم الرقمية»، وذلك بالاستغناء لأوقات معدودة عن الهواتف الذكية والحواسيب، بإجتزاء وقت لنا لا نراجع فيه رسائل ولا نفتح بريداً ولا نشغل حاسوباً ولا نجاور هاتفاً نقلاً ... ولا نشاطر من نراسله «أحب» أو «لا أحب»، لكن نبقي لوحداً مع أهلنا نصغي إلى ما يقولونه لنا ... ومن شأن نقاهة إزالة السم الرقمي هذه أن تسمح بتجدد أفكارنا، وباستعادة تركيزنا، وبانفتاح ذهننا. إذ أنى لإنسان أن تتبدى له أفكار جديدة وعينه على الشاشة طيلة سحابة يومه؟

وتضرد الباحثة كل فصل لركيزة من ركائز المعيار الثالث:

ثمة، أولاً، ممارسة التأمل أو الصلوات. إذ ما عادت هذه الممارسة، بشاهد العديد من البحوث العلمية، ممارسة شعوزية عتيقة مذكورة في كتب الحكمة الشرقية البائدة. لقد ألحت الحكمة. أكانت شرقية أم غربية. على ضرورة أن يخلو المرء بنفسه ساعة يتأمل، وأظهرت الدراسات العلمية أن التأمل هو العلاج الأفضل، فهو الذي يحد من آفات أمراض القلب والشرايين والسرطان والسكري ... كما يمكن من تقليص آثار الضغط، ويحسن من التركيز، وينمي من الإنتاجية. التأمل هو الطريق نحو عيش خلاق منتج سليم سعيد.

والركيزة الثانية هي استعادة ما فقدناه من قدرة على الاندهاش والإعجاب أمام أمور الحياة التي نصادفها. لقد أمسى إنسان اليوم، تحت تأثير الضغط، يحيى ما صار يسمى «جوعاً إلى الوقت». يحيى هو بشعور دائم بالأ وقت له. والحال أن من شأن هذا الجوع

إلى الوقت أن يحرمنا من فضيلة إبداء التعجب من تلك المعجزات الصغرى التي تحدث في حياتنا وتحيط بنا. لقد كان إينشتاين يعتبر هذه المقدرة على إبداء الإعجاب شرطاً قلياً للعيش، وإلا مات الإنسان وهو حي. ومن منغصات الإعجاب أن نقوم بأمرين في الوقت ذاته: أن نمشي وبالبديل من أن نستمتع بما نشاهده تكون عيوننا ملتصقة بالهاتف نقرأ الرسائل أو نكون نتحدث في الهاتف، فنفتو على أنفسنا فرصة التفرج على الأشياء، حتى ولو كنا نعبر حديقة جميلة. ويا للفرصة الضائعة!

وثالث الركائز الحكمة. ويمكن أن يستدل المرء على أهمية الحكمة. «الروية» بلغة القدامى. من خلال ما يشهد عليه من حوله على مسؤولي أعمال كبار وإعلاميين يتخذون قرارات كارثية لا روية فيها، وقس على ذلك رجال السياسة الذين يهزمون لا من طرف خصومهم وإنما من لدن خطواتهم غير المحسوبة العواقب. ذلك أن شدة ارتباطنا بكل الناس ارتباطاً سطحياً من شأنها أن تحرمنا من فن الإصغاء إلى المقربين منا جداً وإلى أنفسنا، ناسين أو متناسين أن الحكمة تسكن في دواخلنا.

ورابع الركائز الجود. والحال أن ثمة العديد من الدراسات العلمية التي أظهرت كيف أن السخاء مرتبط بلطافة العيش، وأن التبرع لعمل خيري يعادل نفسياً الأثر الذي يكون لنا عندما نضاعف مداخيلنا. ذلك أنه لما نجود نشعر بإحساس بالانشرخ. على أن الضد هو ما نحى عليه اليوم، وكأن التملك هو ما يجعلنا نشعر بالانشرخ. إنما الانشرخ الحق آت من إحساسنا بالقدرة على أن نفعل لشخص ما لا يقدر هو على فعله لنفسه، مثل مساعدة طفل على الحصول على التعلم، أو إنقاذ حياة طفل صغير ... يمكن أن يكون الفعل متواضعاً جداً، مثل مشاطرة الغير رغيضاً، لكنه من الناحية النفسية ذو أثر عظيم ...

وبعد، بعد قراءة كل هذا، هل بقي لنا مكان لكي نتذكر أن حكيمنا العربي القديم. أبو حيان التوحيدي. صدق بعد أن سبق أن نبه إلى أن حب الجاه وحب المال وحب الرياسة آفة الخلق أجمعين؟

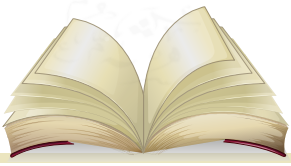
عنون الكتاب: **Thrive: The Third Metric to Redefining Success and Creating a Life of Well-Being, Wisdom, and Wonder**

مؤلفة الكتاب: **Arianna Huffington**
دار النشر: **Harmony, USA**

سنة النشر: 2014

عدد الصفحات: 304





عيد العنصرة في أرض النبي محمد . . .

عزالدين عناية *

يُعدُّ كتاب الباحث الإيطالي فرانشيسكو سترازاري من الدراسات القليلة التي تناولت أوضاع المسيحيين في الوقت الراهن في بلدان الخليج العربي، وهو يندرج ضمن اهتمامات الباحث بالمسائل الأمنية والتعايش الديني بين المسلمين والمسيحيين. فقد أصدر في الشأن عدداً من المؤلفات منها: «صوب الأرجنتين لمعرفة البابا برغوليو» ٢٠١٣، و«الكنائس في أوكرانيا والقوقاز بعد ١٩٨٩ - ٢٠١١»، و«المسيحيون بين الأصولية والحرب في بلاد الرافدين» ٢٠١٠. والكتاب المخصص لشؤون المسيحيين في الخليج العربي يأتي بشكل عام ضمن مناخ يسود فيه تحوُّف على مصائر الأقليات المسيحية في البلاد العربية من الأثرية المسلمة. ولذلك وجب التنبيه إلى ضرورة التعاطي مع المسيحية في الخليج العربي ضمن منطقتي مغاير، بوصفها مسيحية مهاجرة عابرة وواحدة وليست مسيحية أصيلة، حتى لا تحسُر ضمن منطقتي الأثرية والأقلية.

أخرى في السلطنة تبلغ خمسة بالمئة. ويذكر أن تاريخ الكاثوليك في السلطنة يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر حين ناشد جمعٌ من الكهان في عُمان القنصل الفرنسي في مسقط لمساعدتهم لفتح بيت للرعاية. مع ذلك بقي عدد المسيحيين إلى غاية العام ١٩٧٦ محدوداً، تاريخ شروع الكابوتشي الأمريكي الكاهن بارث كيستل في إنشاء كنيسة في منطقة روي، بعد نيل ترخيص من جلالة السلطان قابوس. ومع تطور الصناعة البترولية في السلطنة وتنامي أعداد المسيحيين طلب المونسنيور غريمولي من السلطان السَّماح له بإنشاء «بيت للصلاة»، وتم تدشين الكنيسة سنة ١٩٨١. يذكر الباحث تعذُّر التآلف بين مختلف المذاهب المسيحية، ما دفع إلى إنشاء كنيسة خاصة بالكاثوليك خلال العام ١٩٨٤. ومع تزايد العمالة الأجنبية وتعدد المطالبات بتوفير أماكن خاصة للعبادة سمحت السلطنة بكنيستين واحدة في بوشر وأخرى في غلا فضلاً عن إقامة للرهبان، وتم تدشين المقر سنة ١٩٨٧ بحضور أربعة آلاف مسيحي. وعلى مستوى عام تبلغ أعداد الكاثوليك في السلطنة زهاء ثمانين ألفاً، تسهر عليهم أربع أبرشيات، اثنتان في مسقط (روي وغلا) وثالثة في صحار ورابعة في صلالة، يتولى تسييرها في الوقت الحالي تسعة كهنة. حيث يتمتع المسيحيون بحرية تامة في أماكن العبادة الممنوحة من قِبَل الدولة. وأما من جانب إسداء الخدمات فهي خاضعة لترخيص تمنحه الدولة. يذكر الكاتب أن العلاقات مع السلطات في العموم طيبة ويقدر أن نسج علاقات دبلوماسية مع الكرسي الرسولي هو مسألة وقت.

البحرين:

كان يقطن خلال ثلاثينيات القرن الماضي في البحرين قرابة ٥٠٠ كاثوليكي يشملهم بالرعاية في ثلاث مناسبات سنوية كاهن كرمل ياتي للغرض من بغداد. وقد أنشئت أول كنيسة في المنامة سنة ١٩٤٠، لحقها تأسيس مدرسة سنة ١٩٥٣ بموجب تكاثر أبناء الأسر الوافدة، تتولى الإشراف عليها راهبات التنظيم الكومبوني. وفي الحقبة المعاصرة شهدت العلاقات مع حاضرة الفاتيكان تطوراً ملحوظاً حيث استقبل رئيس الوزراء خليفة بن سلمان آل خليفة من قبل البابا بندكتوس السادس عشر في التاسع من يوليو ٢٠٠٩. ووفق ما يُورده الباحث تبلغ نسبة المسيحيين

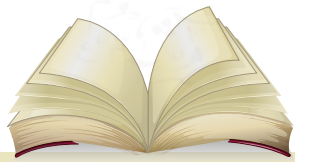
ما خلف تقارباً بين التصوف الإسلامي والنسك المسيحي. بعد ذلك التمهيد التاريخي للمسيحية في الجزيرة، يتناول الكاتب الحضور المسيحي خلال الفترة الحديثة مع تشكل نواتات الوافدين كما هو الشأن حول ميناء جدة. حيث أنشئت نيابة بابوية ترعى شؤون الجالية برئاسة أنطونيو بوناجونتا فوغي الإسباني والمكلف من «بروباغندا فيد»، الأمانة الراعية لشؤون التبشير في حاضرة الفاتيكان. لتتأخر تلك الهيئة جدة في فترة لاحقة باتجاه عدن. وفي ٢٨ يونيو ١٨٨٩ حين تشكلت النيابة الرسولية للجزيرة العربية كانت تضم ما يُعرف اليوم بالكويت واليمن والمملكة العربية السعودية والبحرين وقطر وعمان والإمارات العربية وقد تولي مهامها الكابوتشيون، أتبع ذلك بتدشين أول كنيسة في المنامة سنة ١٩٣٩، ليتسارع حضور المسيحيين مع منتصف القرن العشرين بتطور الصناعة البترولية. ونظراً للتطورات الحاصلة في أعداد المسيحيين الوافدين على المنطقة، تم تقسيم النيابة الرسولية للجزيرة العربية إلى فرعين، أحدهما شمل البحرين والكويت وقطر والسعودية والآخر ضم جنوب الجزيرة وعمان والإمارات واليمن. في القسم الثاني من الكتاب يتحوّل الباحث إلى عرض أوضاع المسيحيين في الراهن، مستهلاً حديثه بالمملكة العربية السعودية التي يبلغ عدد المسيحيين فيها، وفق ما يورده، مليوناً ونصف المليون جميعهم من الوافدين، وليس من ضمنهم رسمياً مسيحيون سعوديون. كما يبين سترازاري أن المملكة العربية السعودية لا تربطها علاقات دبلوماسية بحاضرة الفاتيكان وإن كانت تجمعها اتصالات غير مباشرة. مبرراً أن ما يحول دون إرساء علاقات بين البلدين يتلخص في المطالبة من الجانب المسيحي بحرية العبادة وتشديد دور خاصة للعبادة، فضلاً عن الإلحاح الدائم للسماح بأنشطة اجتماعية تابعة للكنيسة.

سلطنة عمان

بعد تقديم تاريخي واجتماعي للسلطنة، يتناول الكاتب المسيحية عبر تاريخ عمان الحديث منطلقاً من الغزو البرتغالي سنة ١٥٠٨ وهو ما ترافق بإصرار من الأهالي لتحرير بلدهم من الغزاة الأجانب الذين خلفوا وراءهم بعض الآثار الدينية مثل الكنيسة الصغيرة في قلعة الميراني. يورد الباحث أن نسبة المسيحيين من جملة أديان

يستهل الباحث بحثه بتقديم عام بقلم جورج إميل عيراني الأستاذ في الجامعة الأمريكية في الكويت، يستعرض من خلاله الخاصيات التاريخية والسياسية لجمل بلدان الخليج، مبرزاً الأوضاع الاقتصادية الجيدة التي ساهمت في جذب المسيحيين وغيرهم نحو هذه البلدان. إذ يفوق عدد المهاجرين في بلدان الخليج ١٥ مليوناً، وتبلغ نسبهم في قطر والإمارات مثلاً أكثر من ثمانين بالمئة، في حين تتنازل في سلطنة عُمان والمملكة العربية السعودية إلى قرابة ثلاثين بالمئة. يتناول عيراني في تقديمه الخصوصيات الدينية والاجتماعية المحافظة في الخليج، فضلاً عما يشهده من تحديات متمثلة في تسرّب التشدد الديني، ناهيك عن التهديدات والمطامع الخارجية، التي جعلت من تلك البلدان محطاً أنظار العديد من القوى الإقليمية والدولية.

ينطلق الكاتب في بحثه بحديث عام عن الجذور التاريخية للمسيحية في جزيرة العرب، كون هذا الدين يعود تاريخه إلى عهود سابقة لظهور الإسلام. ليتتبع تلك الجذور منطلقاً من النص الوارد في العهد الجديد على لسان بولس «بل انطلقت إلى بلاد العرب وبعد ذلك رجعت إلى دمشق» (الرسالة إلى مؤمني غلاطية ١: ١٧)، الذي يلمح فيه لخلوته الروحية التي يُرجح حصولها في منطقة الأنباط، تحديداً في البتراء. ومع أن المسيحية قد شهدت فتنة عقديّة مبكرة حول شخص المسيح، بين الموحّدين وأنصار الطبيعة الواحدة للمسيح، البشرية والإلهية، فقد كان جنوب الجزيرة فضاء خصباً لانتشار الأريوسية الموحّدة، النافية لأي بُعد إلهي في شخص المسيح. من جانب آخر يُرجع الباحث عدم تجذّر المسيحية في تلك البقاع إلى طابع الترحال المهيمن، فضلاً عن عداة يهود الجزيرة المستحکم للمسيحيين، وما خاضه ذو النواس في أرض اليمن من سعي حثيث لاجتثاث أتباع دين المسيح في مطلع القرن السادس. وبرغم الأوضاع العسيرة التي أُلّت بالمسيحية في جزيرة العرب، والتي روى القرآن الكريم حداثتها في «سورة البروج» تواصل حضور أتباع المسيح حتى فجر الإسلام، في مكة وتيماء ووادي القرى والمدينة. ويذهب سترازاري إلى تواجد تواشع عميق بين الروحانية الإسلامية والرهينة المسيحية من حيث أشكال التعب والتقرب إلى الله والتعامل مع نصوص التلاوة سواء في القرآن الكريم أو المزامير، وهو



حياة المسيحيين في بلدان الخليج العربي

١٩٨٣ بحضور عدد من الشخصيات الدينية والسياسية. وفي دبي جرى الترخيص منذ مطلع الستينيات لإنشاء كنيستين أتبعتهما بالعديد من المدارس الدينية تتوزع بين مختلف الطقوس. وفي الشارقة أيضاً بعد تشكل جالية مسيحية تم السماح بإنشاء كنيسة يتقاسمها الكاثوليك والبروتستانت ليجري تغيير مقرها نحو مكان آخر. كذلك أنشئت كنيسة في إمارة العين منذ العام ١٩٦٩ جرى توسيعها مع مطلع العام ١٩٨١. بشكل عام يناهز عدد الكاثوليك في الإمارات المليون نسمة، حيث تتواجد سبع أبرشيات يسهر عليها ٣٢ كاهناً يرأسهم أسقف. ومنذ إرساء علاقات دبلوماسية مع حاضرة الفاتيكان سنة ٢٠٠٧ تطورت العديد من الخدمات، حيث نجد سبع مدارس يُديرها كاثوليك يرعون ١٧ ألف طالب وطالبة من التحضيري إلى ما قبل الجامعة، كما سمحت السلطات خلال العام ٢٠١١ بإنشاء كنيستين جديدتين.

ووفق تقديرات عامة يتواجد في بلدان الخليج العربي زهاء ثلاثة ملايين مسيحي كاثوليك، من ضمنهم ٣٠ ألف طفل يتمتعون برعاية تربوية ودراسية مسيحية يسهر على شؤونهم ٩٠ رجل دين. والجلي في الكنيسة في الخليج العربي أنها تتشكل من مهاجرين، نصفهم من الشرق الأوسط، مع ذلك تسعى حاضرة الفاتيكان إلى كسب الجميع إلى صفها، سعياً لتثبيت قدم في تلك البقاع والتأثير من خلالها، وذلك عبر تبني مطالبهم. وهو ما يُبلي على بلدان الخليج ضرورة إرساء سياسة هجرة مشتركة للرد على التحديات المطروحة. فالفاتيكان يلج من خلال وسائل إعلامه على ضرورة مراعاة الحرية الدينية في الخليج، والحال أن الحرية الدينية مصطلح فضفاض تتغير دلالاته بتغير الأنظمة الاجتماعية. فالحرية الدينية في الغرب تتغير دلالتها من بلد إلى آخر، وليست الحرية الدينية في أوروبا مثل نظيرتها في أمريكا التي تنعدم فيها هيئة دينية مهيمنة ناطقة باسم الدين.

لعل من المأخذ الجلية على الكاتب أنه يبتعد في العديد من فصول كتابه عن موضوعه الأساسي المتعلق بتتبع أوضاع المسيحيين، ليتحول إلى تنديد بأوضاع المهاجرين ونظام الكفيل. يقول مثلاً تحت عنوان المسار الطويل والشاق لحقوق الإنسان في دول الخليج، صفحة: ٦٠ «ثمة مئات الآلاف من المسيحيين خصوصاً من النساء يعيشون في حالة عبودية بدون أية حقوق» وهو افتراء بدون دعامات.

الكتاب: عيد العنصرة في أرض النبي محمد... حياة المسيحيين في بلدان الخليج العربي.

المؤلف: فرانسيسكو سترازاري.

الناشر: منشورات ديهونيان (بولونيا-إيطاليا) «باللغة الإيطالية».

سنة النشر: ٢٠١٤.

عدد الصفحات: ٨٦ص.

* أستاذ تونسي بجامعة روما



الراهن تبلغ أعدادهم ٤٠٠ ألف، من ضمنهم ربع مليون كاثوليك على رأسهم ثمانية كهان يتولون شؤون الرعية بشكل رسمي. بحلول العام ٢٠٠٨ أمر الأمير حمد بن خليفة بإنشاء موضع مخصص يسمى «مركب الأديان» يشمل المسيحيين، وتطورت الأمور بسماع قطر بحضور جماعة من الرهبان يسهرون على شؤون الجالية، حيث يقام في الكنيسة خلال أيام الجمعة والسبت والأحد زهاء أحد عشر قداساً في اليوم الواحد بلغات مختلفة يشارك فيها بين عشرين ألفاً وثلاثين ألف مسيحي، كما تنعم الجالية بجملة من المركبات تسدي خدمات للكنيسة تغطي مختلف الحاجات الأسرية والتربوية والتعليمية. فضلاً عن ذلك ثمة مركزان آخران في الخور ودخان، علماً بأن قطر تربطها علاقات دبلوماسية بحاضرة الفاتيكان.

اليمن

يناهز عدد الكاثوليك في اليمن أربعة آلاف، تسهر على شؤونهم أربع أبرشيات في صنعاء وعدن وتعز والحديدة، كما توجد دورٌ للرعاية الصحية أيضاً أنشئت منذ ١٩٧٣. وقد تمت مصادرة أماكن الرعاية والمدارس أثناء حكم الشيوعيين، وبعد مقتل ثلاث راهبات في الحديدة سنة ١٩٩٨ أحيطت أديرة الراهبات بحراسة مشددة من قبل السلطات الرسمية.

الإمارات العربية المتحدة

خلال سبعينيات القرن الماضي حين غدت أبوظبي عاصمة البلاد سمحت السلطات بإنشاء كنيسة ومدرسة وبيت إقامة لرجال الدين. ومع إخلاء عدن من النشاط المسيحي في مطلع العام ١٩٧٤ تحول رجال الدين إلى أبوظبي لتغدو مقراً للنيابة الرسولية. في فترة لاحقة وُضع حجر الأساس لأول كاتدرائية في مارس ١٩٨١ وتم تدشينها في فبراير

في البحرين عشرة بالمئة من المجموع العام للسكان، أي ما يُعادل مئة ألف مسيحي أغلبهم من الفيلبين. وتنتصب في العاصمة البحرينية كنيسة كبرى يسهر عليها ستة كهنة من الكابوتشين. كما توجد كنيسة أخرى يؤمها قرابة الألف كاثوليك في عوالي يسهر عليها كاهن مقيم، وثمة توجهٌ لتحويل كنيسة عوالي إلى كاتدرائية كبرى للنيابة الرسولية لشمال الجزيرة العربية، وقد حظي ذلك بتزكية من الجهات الرسمية.

دولة الكويت:

تبلغ نسبة أعداد الكاثوليك في دولة الكويت تسعة بالمئة، ويمثل الأجانب تقريباً نصف سكان البلاد من ضمنهم ١٢ بالمئة من المسيحيين، يتوزعون بين العديد من الكنائس، لكن يبقى الكاثوليك الأكثر عدداً، حيث يبلغ عددهم ٣٥٠ ألفاً ينتمون إلى مختلف المذاهب، اللاتين والوارنة والأقباط والأرمن والسريان والكلدان. وتمثل الكتلة التابعة للطقس اللاتيني القسم الأهم، وهي متأية من الهند والفيلبين والبلدان العربية، فضلاً عن أعداد قليلة قادمة من إفريقيا وأمريكا اللاتينية والبلدان الآسيوية. وعلى العموم يمثل المسيحيون فسيقساء متنوعة يتوزعون بين بلدان عدة ويتكلمون لغات شتى، وقد خلف ذلك جملة من المشاكل ذات طابع طقسي وتنسيقي، يظهر في التوتر الحاصل بين تجمعات البروتستانت والكاثوليك، التي غالباً ما يسعى القائلون لتطويقها.

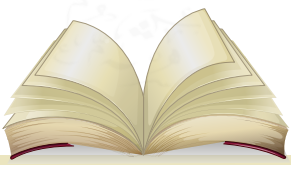
في مجال التسيير يشرف آباء سيدة الكرمل على النيابة الرسولية منذ ١٩٥٣، تصحبهم في الوقت الحالي تنظيمات كنسية أخرى. كما نجد تجمعات للراهبات وافدة من الأردن ولبنان تشرف على مدرسة فجر الصباح، وتشرف راهبات الكرمل من الهند على مدرسة الكرمل، كما يدير الآباء السالزيان المدرسة الأكاديمية.

خلال سنوات قليلة تطوّرت أعداد الكاثوليك في الكويت من ١٠٠ ألف إلى ٣٥٠ ألفاً، ما انعكست آثاره على مدوالات البرلمان بشأن السماح من عدمه لتوسيع الكنائس الحالية وذلك جراء تحوّفات من أعمال التبشير، كما أن ثمة خشية من الجانب المسيحي لانتهاج العقد المتعلق بالكاتدرائية بحلول العام ٢٠١٦، وهي من التحديات العويصة التي تواجه الكنيسة في بعض بلدان الخليج كونها كنيسة عابرة ومؤقتة. يُذكر أن دولة الكويت تربطها علاقات دبلوماسية بحاضرة الفاتيكان منذ العام ١٩٦٨.

قطر

تُقدر نسبة المسيحيين في قطر بتسعة بالمئة من مجموع الوافدين العام. ويعطي مؤلف الكتاب صورة قاتمة عن النظام الاجتماعي السائد في البلاد كون النهج العام يطفى عليه الطابع الوهابي، ومع أن القانون يمنع التمييز على أساس ديني فهو يحظر أي شكل من أشكال التبشير. خلال ثمانينيات القرن الماضي كان عدد المسيحيين ستة آلاف، وفدوا من بلدان شتى خصوصاً من الهند، وفي الوقت





في كواليس الشرق الأوسط...

إميل أمين

هذا كتاب مهم... صاحبه «إريك رولو» الصحافي والدبلوماسي والمؤرخ الفرنسي الذي رحل عن عالمنا منذ بضعة أشهر فقط وبالتحديد في فبراير شباط من العام الجاري ٢٠١٥.

لم يكن «رولو» إلا قصة لأحد أبرز الرجال العارفين بشؤون الشرق الأوسط، وقد اكتسب شهرة عالمية بفضل كتاباته في جريدة «لوموند» الفرنسية وفي مجلات مختلفة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، كما كان الرجل من أكثر المراقبين اطلاعاً على خبايا الشرق الأوسط وربطها ببعضها البعض من جهة، وبينها ودول العالم المختلفة من جهة أخرى.

«هنري كيسنجر» دهاءه في الحيلولة دون أي حل للصراع العربي الإسرائيلي، في حين كان يتظاهر بأنه يعمل من أجل تحقيق السلم في المنطقة.

كان «إريك رولو» من أوائل الصحفيين الغربيين الذين التقوا قادة منظمة التحرير الجدد عام ١٩٦٩ وعلى رأسهم ياسر عرفات وصلاح خلف (أبو إياد)، ويرى أن عرفات وإن كان قد رحل قبل أن يتمكن من إنشاء دولة فلسطينية، إلا أنه يفضلته وبفضل رفاقه فرض اعتراف العالم باستثناء إسرائيل والولايات المتحدة بحقه في إنشاء دولته المستقلة في الأراضي الفلسطينية، التي احتلتها إسرائيل سنة ١٩٦٧، فللشعب الفلسطيني حقوق مشروعة لا ولن يجوز التصرف بها.

على هامش المذكرات يذكرنا «ألان جريش» الصحافي الفرنسي في جريدة لوموند ديبلوماسيك والمولود أيضاً بمصر، وهو ابن المناضل الشيوعي الأمامي «هنري كوريل» مؤسس تنظيم «حدوتو»، ويعد جريش الابن الروحي لايريك رولو... يذكرنا بمن هو رولو وما هي إمبراطوريته، وكيف لصحفي لا يملك سوى الأقلام والأوراق أن يغدو إمبراطوراً دون ممتلكات أو مستعمرات.

طوال عدة عقود، من خمسينيات القرن الماضي وحتى نهاية الثمانينيات غطى «إريك رولو» أحداث البلدان العربية، ناهيك عن أحداث إسرائيل، واليونان، وتركيا، وإيران، وأفريقيا في فترة سعيها إلى الاستقلال كما في أثيوبيا، وحتى باكستان البعيدة، ليصبح الصحافي الأشهر في أشهر صحيفة يومية فرنسية، حتى أن زميله ورفيق دربه الصحافي «جان جيراس» قد علق على ذلك قائلاً إن: «إمبراطورية رولو لا تغرب عنها الشمس أبداً» مثلما كان يقال عن الإمبراطورية البريطانية أو عن إمبراطورية كارلوس الخامس مبتدع تلك العبارة وصانها.

كان «إيلي» الذي أضحى لا حقاً «إريك» فرنسي اللسان شأنه في ذلك شأن كثير من المصريين، المسيحيين منهم واليهود والمسلمين، وشأن أبناء الكثير من الجماعات التي تعايشت على أرض مصر، من يونانيين أو إيطاليين، فرنسيين أو شوام.

كان الأدب المصري الفرانكفوني، يتألق آنذاك بأبهى الإبداعات، من «إدمون جابيس»، إلى «البير قصيري»، مروراً بـ «جورج جنبه»، كما خاض هذا الأدب تجربة السورالية،

ذلك تبذل جهوداً جهيدة لمعالجة الأزمة بالطرق السلمية، ويذكرنا الكاتب بالدلائل القاطعة أن الرئيس الأمريكي جونسون قد دعم الخيار العسكري الإسرائيلي وكذب على الرئيس عبد الناصر.

يدهش الشاب العربي حال معرفته أن «إريك رولو» لم يكن هذا اسمه في يوم مولده عام ١٩٢٦، بل كان «إيلي رافول»، ابن لأسرة يهودية نشأ وترعرع في العاصمة المصرية القاهرة، درس الحقوق في جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) وعمل صحفياً بجريدة الإيجيشيان جازيت، قبل أن يضطر للانتقال قسراً للحياة في فرنسا عام ١٩٥١ لاتهامه بالشيوعية.

وفي كل الأحوال فإن المفارقة الحقيقية هنا تتمثل في أن المواطن عند «رولو» غلبت النزعة الدينية العاطفية، إذ جاءت مذكراته تميل لتسليط أشعة الضوء على الحقيقة، حيث مصر والعالم العربي والفلسطينيون هم ضحايا العدوان والاحتلال الإسرائيلي، ولم تحل يهوديته دون الحقيقة أو تقف أمامها سداً.

يذكرنا «إريك رولو» أيضاً كيف أن الدعاية الإسرائيلية المدعومة أمريكياً روجت لمقولة أخرى وهي أن إسرائيل خائفة من الغول العربي، الذي كان يتهياً للقاء عليها في حين أن القيادة العسكرية الإسرائيلية كانت واثقة تماماً من قدرتها على تحقيق النصر في أية مواجهة مع الجيوش العربية، وأن الخسائر الإسرائيلية لن تكون كبيرة.

وقد تبين من الوثائق الرسمية التي نشرت لاحقاً أن الإدارة الأمريكية كانت من الرأي ذاته وأنها طمأنت حليفها الإسرائيلي بأن انتصاره سيكون سهلاً المنال.

صفحات الكتاب تلفت انتباهنا إلى الزور والبهتان الذي طارد الكثير من الزعماء العرب أحياء وأمواتاً، ومنهم عبد الناصر شخصياً، والذي صورته الغرب على أنه طاغية محب للدماء، في حين ينقل لنا «رولو» صورة إيجابية عن الزعيم المصري الذي وجه دعوة إلى «ناحوم جولدمان» مؤسس ورئيس المؤتمر اليهودي العالمي.

وقد قبل جولدمان الدعوة إلا أن المسؤولين الإسرائيليين منعه منعاً باتاً من الذهاب إلى القاهرة، وبنفس المصادقية والموضوعية يروي لنا من أضايب التاريخ كيف استخدم

يَعْنُ لنا التساؤل بداية ما سبب أهمية هذا الكتاب؟ المؤكد أنه سيكون مرجعاً ثميناً للجيل العربي الناشئ الذي لم يعايش جزءاً كبيراً من الأحداث التي صنعت تاريخنا الحديث، ومنها وصول جمال عبد الناصر إلى مكان الصدارة في مصر وفي منطقة الشرق الأوسط والساحة السياسية بكاملها وحروب العرب مع إسرائيل سنة ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣، وكذلك وصول ياسر عرفات إلى رأس منظمة التحرير الفلسطينية والمحاولات العديدة الرامية إلى تحقيق السلم مع إسرائيل والتي باءت كلها بالفشل.

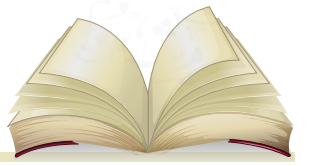
ولأهمية سطور هذا الكتاب فقد كتب مقدمته السيد «الأخضر الإبراهيمي» السياسي والدبلوماسي الجزائري المعروف، والذي عين وزيراً لخارجية بلاده في الفترة ما بين عامي ١٩٩١ - ١٩٩٣، كما كان مبعوثاً للأمم المتحدة في أفغانستان والعراق ومبعوثاً مشتركاً للجامعة العربية والأمم المتحدة إلى سوريا عام ٢٠١٢.

يلفت السيد الأخضر الإبراهيمي انتباه القارئ إلى أمر مهم، وهو أن «إريك رولو» اختص بمذكراته هذه مصر وإسرائيل والقضية الفلسطينية بشكل يكاد يكون حصرياً. فلا شيء في الكتاب يُذكر عن تركيا وتونس مع أنه عمل سفيراً لفرنسا في كل من البلدين، ولا شيء يذكر عن العراق أو إيران رغم أنه تابع الأحداث في كل من بغداد وطهران عن كثب، وكانت له علاقات واتصالات وثيقة برجال السياسة والثقافة في كل بلد من بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

الكاتب يميل للثام عن مواضيع عديدة ذات أهمية كبيرة ومؤثرة في شؤون العالم العربي حتى الساعة، فعلى سبيل المثال لقد روجت وسائل الإعلام الإسرائيلية والأمريكية لأكاذيب عديدة حول ما جرى في المنطقة، فأقنعت العالم مثلاً أن إسرائيل كانت مهددة بالإبادة قبل حرب سنة ١٩٦٧، وأن مصر وعلى رأسها «الديكتاتور ناصر» هي التي بادرت بالاعتداء على إسرائيل الصغيرة الضعيفة المسالمة وأن «داوود» انتصر على جالوت بأعجوبة...

غير أن «إريك رولون» وفي صفحات الكتاب يذكرنا بحقيقة الأحداث كما حدثت وهي أن: «إسرائيل هي التي كانت الدولة المعتدية، وليس مصر التي كانت على العكس من





مذكرات صحفي بجريدة لوموند

واحتك بـ «بول اليوار» وماكس جاكوب.

يلفت «ألان جريش» عبر سطور كتاب والده الروحي إلى أزمة مهمة وخطيرة في ذات الوقت، تتصل باليهود الذين كانوا يعيشون في العالم العربي، وكيف كانوا يعيشون، ولما آلت أحوالهم إلى الهجرة من حلب وعمان والقاهرة والدار البيضاء وغيرها من العواصم العربية إلى دولة إسرائيل. يعطينا «ألان جريش» المثل عبر يهود مصر والذين كانوا يشعرون صدقاً لا زيفاً بأنهم مصريون، ولم يكن ليسحرمهم شدة نداءات الحركة الصهيونية، وقد عبر «جيل بيرو» عن ذلك بعبارة جميلة في كتابه «رجل فريد» الذي كرسه لسيرة «هنري كوريل» فقال «باستثناء الأقلية الصهيونية، لم يكن أحد يستشعر ضرورة قيام دولة يهودية، أو تتأبه الحاجة إلى الترنم بأنشودة «العام المقبل في القدس»، حين كان الذهاب إلى هناك لا يتطلب أكثر من ركوب قطار الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة.

لكن عندما جعل النزاع الإسرائيلي العربي حياتهم مستحيلة، صاروا ضحايا لموجات كراهية اليهود في العالم العربي وهدفاً لمحاولات الحكومة الإسرائيلية لاستعمالهم كطابور خامس، اضطروا للهجرة إلى فرنسا - وليس إلى إسرائيل - بوصف فرنسا أرض الميعاد الحقيقية، واليوم كثيراً ما يصور انتقاد الصهيونية على أنه شكل مستتر لمعاداة السامية.

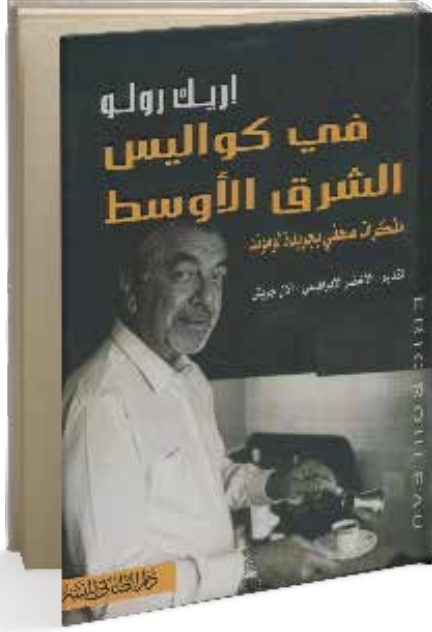
مع ذلك، ففي النصف الأول من القرن العشرين، كانت الغالبية العظمى لليهود عبر العالم ينظرون إلى المشروع الصهيوني بعدم اكتراث، إن لم يكن بعداء، وكان إيلي يرى نفسه مصرياً قبل كل شيء ومتضامناً مع إخوانه في المواطنة المتحددين جميعاً بغض النظر عن دياناتهم.

يقر «إريك رولو» في مذكراته بحاله وحال اليهود المصريين في ذلك الوقت فيخبرنا بالقول «كنا نعيش بصورة جيدة داخل المجتمع المصري، حيث كان اليهود يشغلون مكانة مرموقة، ففي وسط القاهرة، كانت الأحياء التجارية تفرق في سبات عميق أيام الأعياد اليهودية كعيد الغفران أو رأس السنة اليهودية، إذ كانت العديد من المتاجر الكبرى والمحلات والمصارف وشركات الأعمال فضلاً عن البورصة، جميعها تغلق أبوابها.

وكانت المقاهي والمطاعم ودور السينما تعمل بكثافة أقل. هل تضع مذكرات إريك رولو أيدينا على اللحظة الفارقة التي حدث فيها الطلاق بين اليهود ومواطنيهم في كل العالم العربي؟

يقر صاحب الكتاب بأن المناخ السياسي المصري بدأ يتدهور، منذ نوفمبر ١٩٤٧، حين أصدرت الجمعية العامة قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين، إحداهما يهودية، والأخرى عربية فلسطينية، وقد أثار القرار شغلة من الغضب وأذن ببداية حملة كراهية لليهود، فهاجمت الصحافة اليهود، وهي التي كانت تبدي إلى ذلك الحين قدراً من الاعتدال، وأخذت تتهمهم بأنهم «صهاينة» و«شيوعيون» في آن...

لقد كان إنشاء دولة إسرائيل بمثابة إيدان بالطلاق ما بين اليهود ومواطنيهم في كل العالم العربي، وقد رأى المسؤولون



الصهاينة في ذلك ما يعضد أطروحتهم القائلة بافتقار الأقليات غير المسلمة لمستقبل منظور في البلدان الإسلامية، لتتخذ الهجرة إلى إسرائيل انطلاقة جديدة... رغم ذلك - يعترف إريك رولو - قررت عائلتي ألا تغادر البلاد، شأنها في ذلك شأن كثير من العائلات سواها، إذ لم تكن قد فقدت كل الأمل في أن تعود حياتهم إلى سابق عهدها.

أفضى إنشاء دولة إسرائيل في مايو ١٩٤٨ إلى تحديد مصير يهود مصر والشرق الأوسط في غضون بضعة أعوام... ففي أسلوب رواي يعترف «إريك رولو»... «تحت تهديد التعرض للإدانة بتهمة مزدوجة تدمغني بالصهيونية والشيوعية، وتحت وطأة العوز والبطالة، قررت الرحيل عن مصر. ولم تعارض السلطات الأمنية رحيلي، لكنها أبت إلا أن تمنحني تأشيرة «خروج بلا عودة»، وفي ديسمبر ١٩٥١ أبحرت مغادراً وقد جاش بصدري شعور مزدوج، اختلط فيه الحزن على مفارقة الوطن، بفرحة الذهاب إلى فرنسا، ووطن أبي الأثير، حيث كان ثمة حياة أخرى بانتظاري، حياة حافلة بالمفاجآت من أوجه عدة.

وبعد بضعة أشهر في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، استولى «ضباط الجمهورية بعد ذلك بعام واحد»...

هل كانت هجرة بغير عودة إلى مصر أي مرة وإلى الأبد؟ لم يكن ذلك كذلك، ففي أثناء إشرافه على باب الشرق الأوسط في صحيفة «لوموند»، حدث له ما لا يتوقع أن يحدث ما دعاه للتساؤل... هل الحظ يقرع بابي من جديد؟ كان أن تلقى «إريك رولو» دعوة من عبد الناصر شخصياً للذهاب إلى مصر في مطلع صيف ١٩٦٣.

يحكي رولو بالتفصيل كيف نشأت قصة عودته إلى مسقط رأسه وكيف جرت، وذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب... كان لقاء عبد الناصر بصحفي عربي يعني إسباغ نوع من الشرعية من قبل الرجل الذي يمثل القومية العربية، على ذلك الصحفي، وعليه وحين فجأة رأى «رولو» كل أبواب

الشرق الأوسط تفتح أمامه، وفي العقود اللاحقة سيلتقي بقيادة المنطقة كافة، من الملك حسين، إلى ياسر عرفات، ومن صدام حسين إلى معمر القذافي، مروراً بأية الله الخميني، وحافظ الأسد.

يوم أن تم اختياره سفيراً لفرنسا في الخارج بناء على طلب من الرئيس الفرنسي «فرانسوا ميتران»، عرف نفسه بأنه ينتمي إلى اللوموند أي إلى العالم، وربما كان على حق في ذلك، فقد جاب العالم، كصحافي ومن أمارات حدسه الصحفي أنه كان دائماً على موعد مع التاريخ.

فكان في القاهرة في يونيو ١٩٦٧، أثناء الهجمة الإسرائيلية، وفي عمان في ١٩٧٠، أثناء مذابح الفلسطينيين على يد الجيش الأردني، وفي القاهرة مجدداً يوم تولى الرئيس عبد الناصر على نحو مفاجئ، وفي نيقوسيا في ١٩٧٤ أثناء محاولة الانقلاب العسكري ضد الرئيس مكاريوس الثالث...

بالنسبة لإسرائيل كان «إريك رولو» أكثر من مجرد عدو، كان خائناً وقد وصفه مناحم بيجن ذات مرة بأنه «عميل مصري، ومسكون بـ كراهية الذات» ذلك أنه لم يسعهم أن يفهموا أن الرجل يحمل على العكس، روحاً يهودية تليدة هم الذين يسعون إلى إزهاقها، تلك الروح الراضية للقومية الضيقة، المتضامنة مع المضطهدين كافة، وكان أحد أصدقائه، شحاته هارون، المحامي اليهودي المصري، الذي رفض مغادرة مصر حتى وفاته، قد طلب أن تكتب هذه المرثية في نعيه بجريدة الأهرام...

أسود أنا حين يضطهد السود

يهودي أنا حين يضطهد اليهود

فلسطيني أنا حين يضطهد الفلسطينيون

يظهر رولو في هذا الكتاب كما كان طوال حياته، أنه وقبل كل شيء كان صحفياً همه الأول أن يفهم القضايا التي يكتب عنها فهماً كاملاً وموضوعياً، وأن ينقل للقارئ صورة أمينة واضحة لما رآه وسمعه، إلا أن الصحفي الملتزم لا يتوانى عن إعطاء رأيه حين يتطلب الأمر ذلك... ولد إريك مصرياً يهودياً ثم أصبح فرنسياً، ولم يجد ذلك إشكالاً من أي نوع... كأنه كان إشارة مبكرة لعالم الهويات المتعددة المتعايشة لا المتقاتلة أو المتحاربة... كان سفيراً للعالم الواسع الذي جابه من أقصاه إلى أدناه... سفير لدى كوكب الأرض، مكلف بمساعدتنا على فك شيفرة اضطراباته ومن ثم فهمها بصورة أفضل.

اسم الكتاب: في كواليس الشرق الأوسط... مذكرات صحفي بجريدة لوموند

اسم المؤلف: إريك رولو

دار النشر: دار الطناني للنشر والتوزيع. القاهرة

سنة النشر: ٢٠١٥

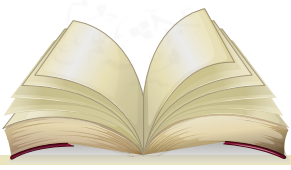
عدد الصفحات: ٣٥٠

ترجمة: د. داليا سعودي

مراجعة: مصطفى الطناني

● مدير مركز الحقيقة للدراسات السياسية والإستراتيجية





مواجهات ثقافية: تمثيلات

د. محمد الشحات

- ١ -

في كتابه (مواجهات ثقافية)، يتناول الكاتب والناقد العربي السعودي سعد البازعي عدداً من القضايا الثقافية الملحة التي ينهض عليها مشروع المعرفي، والتي سبق له أن ناقش بعضها في دراسات أخرى من قبيل (استقبال الآخر: الغرب في النقد العربي الحديث- ٢٠٠٤) و(المكوّن اليهودي في الحضارة الغربية- ٢٠٠٧) و(الاختلاف الثقافى وثقافة الاختلاف- ٢٠٠٨) و(قلق المعرفة- إشكاليات فكرية وثقافية- ٢٠١٠)،... وغيرها. بيد أنه يناوش، في كتابه هذا، عدداً من الأطروحات والقضايا الفكرية الإشكالية التي تنهض على مساءلة مفهوم «الثقافة Culture» ذاته بدلالاته الأكاديمية الواسعة؛ أقصد إلى الثقافة من حيث هي جماع من الأفكار والمفاهيم والممارسات والمقاربات الإيستمولوجية التي تجمع بين الدراسات الأدبية والمداخل الثقافية والأدب المقارن ونظرية الترجمة ودراسات ما بعد الاستعمار، في حيز واحد دون تنافر. وليست المواجهات الثقافية Cultural Encounters، في هذا المضمار، من وجهة نظر الكاتب، سوى شكل من أشكال «تلاقح الثقافات» الذي أصبح ضرورة لا غناء عنها من ضرورات المجتمعات الحديثة.

المعاصرين (نذكر منهم على سبيل المثال، لا الحصر: عبد الله الغدامي، عبد الله إبراهيم، محسن جاسم الموسوي، سعيد علوش، ماري تريفز عبد المسيح، صبري حافظ... وآخرين)، ويصدرون عنها في تحليلاتهم لأنواع شتى من الخطابات، خصوصاً المشتغلين منهم بالدراسات الثقافية ودراسات ما بعد الاستعمار وتحليل الخطاب؛ أقصد إلى الفرضية التي تتمثل في أنه لا يجب الاستسلام أو الإذعان لغواية النظرة السطحية التي لا ترى في الأدب سوى لعبة جمالية بريئة تهدف إلى الترفيه أو التسلية أو الإمتاع فحسب، بل من حيث هو خطاب جمالي يُضمر، بالضرورة، جملة أنساق ثقافية وسياسية واجتماعية وتاريخية ذات علاقات قوى مختلفة بالمؤسسة، سواء تمثل ذلك في المؤسسة الاجتماعية (بيير بورديو) أو السلطة (ميشيل فوكو) أو الإمبريالية (إدوارد سعيد). وكما يقول المؤلف: «ما زالت هناك معارك تقوم بسبب العداوات المخبوءة في ثنايا الثقافات بعموم، العداوات التي تتبدى أحياناً في القصائد والمسرحيات والقصص والمقالات. وبالمثل، وفي مواجهات من هذا القبيل، لا يمكن للنقد الأدبي والثقافي أن يقف مكتوف اليدين كمتفرض محايد حتى لو أراد أو زعم ذلك، فلا يمكن أن يظل مقتنعاً بالتحليل الشكلاني أو المحايد دون التطرق للظروف الأخرى التي أسهمت في تشكيل العمل الأدبي» (ص ١٢).

- ٣ -

ليس بعيداً عن هذا السياق الحديث عن أثر الترجمة في تقريب، أو تقليد، ما يطلق عليه البازعي اسم «مسافة التوتّر» بين الثقافات أو الحضارات «وهو مفهوم قد يتقاطع، بدرجة أو بأخرى، مع مفهوم «مسافة التوتّر» لدى كمال أبو ديب، في كتابه (في الشعرية- ١٩٨٧) الذي يعدّه أبو ديب معياراً مركزياً من معايير «الشعرية»؛ فكل شعرية قائمة على المفاجأة أو الدهشة أو المفارقة التي هي تجليات جمالية لمسافة التوتّر». بالطبع، ثمة فارق تاريخي ومفهومي بين شعرية الشعر لدى أبو ديب وشعرية الثقافات لدى سعد البازعي.

غربيون، نماذج شرقية»، يتناول البازعي ما يحدث غالباً للطلاب العرب الذين تبعثهم جامعاتهم للدراسة في أوروبا، فتكون الصدمة الحضارية التي تجعلهم يُعيدون النظر في مفهوم «اللغة» لا باعتبارها وسيطاً لنقل المعلومات أو أداة من أدوات التواصل الإنساني الفعّال فحسب، بل من حيث هي وسيط ثقافي وحضاري مشبع بالقيم والدلالات والحمولات المعرفية الصريحة والضمنية بالدرجة الأولى. إن ما يشغل الباحث هنا هو كيفية تعامل ثلاثة من الكُتاب الأوروبيين مع الثقافات الشرقية، حيث يلاحظ التباين الواضح بين الكاتبين الإيرلنديين أوسكار وايلد O. Wilde (١٨٥٤-١٩٠٠) ووليم بتلر بيتس W.B. Yeats (١٨٦٥-١٩٣٩) من جهة والفرنسي الشهير رولان بارت R. Barthes (١٩١٥-١٩٨٠) من جهة مقابلة، وذلك في ضوء تقييم العلاقة الثقافية التي تصل الغرب بالشرق. فعلى الرغم من كون وايلد وبيتس قد نظرا إلى الشرق العربي الإسلامي نظرة عالية التشابه قياساً إلى نظرة بارت لليابان، فإن الاختلاف كائن بين كل ألوان التعامل والتوظيف التي نجدتها في نصوص أولئك الكُتاب. ولا يكمن الاختلاف الحقيقي بين أولئك الكُتاب أنفسهم في تعاملهم مع «الشرق»، وإن كان هذا وارداً بدرجات متفاوتة، بل بين ما يستشعرونه من خلفية حضارية غربية يصدرون عنها وخلفية ثقافية شرقية يقفون إزاءها.

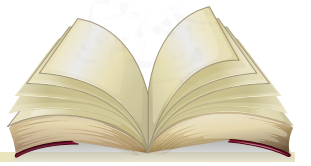
ينتقل الكتاب بالقارئ إلى تحليل طبيعة المواجهة بين الثقافتين العربية واليهودية تجاه التنوير الأوروبي، حيث يتبلور في هذا السياق الإحساس بأن الأقلوية العرقية أو الثقافية، سواء اتصلت بالنظر إلى حالة اليهود أو وضعية المرأة، هي أقرب إلى مواجهة الاختلاف الثقافى وتبني مواقف مؤسّسة على تلك المواجهة، وهذا ما يتبدى بجلاء في مقالتيين من مقالات الكتاب هما: «اهتمامات أقلوية: باحثات عند التقاطع الثقافى»، و«التباس الهويات: المثقفون العرب واليهود عبر البرزخ». من هنا، ينطلق البازعي من فرضية معرفية أخذت تتجذر بقوة في أدبيات النظرية النقدية العالمية، وهي فرضية يتبناها عدد غير قليل من النقاد والباحثين

لذا، ليس من المستغرب بالنسبة إلى القارئ العربي المتابع لإنتاج البازعي أن يراه يتبنى، كما ينتهج في أغلب دراساته وكتبه السابقة، منظوراً مقارناً يمتلك الكاتب أدواته بمهارة وحرافية رفيعة، وسبق له اختبار نظرياً وتطبيقياً في سياقات أخرى عدّة، بحيث إنه يرى في مفهوم المقارنة أداة إدراكية ومعرفية أساسية، قد لا يشعر بها البعض لفرط بدايتها، لكن «المقارنة» -من جهة أولى- تكتسب أهمية ملحّة في التحليل الأدبي وفي استكشاف أطراف العلاقات الثقافية والمواجهات بينها. ومن جهة أخرى، تراه يفرق بين فعلي «المقارنة» و«المواجهة» اللذين قد يبدوان متشابهين أو متداخلين بالنسبة إلى الناظر العابّر غير المدقق. فعلى الرغم من كون أية عملية مقارنة تنضوي، في بنيتها العميقة، على شكل من أشكال المواجهة، فإن المواجهة -وهي المصطلح الذي يفضلّه المؤلف صراحةً، ويدافع عنه منذ مقدمة كتابه- شكل من أشكال المقارنة التي يتبدى فيها نوع من أنواع التوتّر الشديد الذي تتسبب السياسات الثقافية في جعله ظاهرة مؤشكلة؛ وذلك لأن المواجهات الثقافية ليست إلا مواقف تتمكّن -نحن الباحثين في العلوم الإنسانية- من خلالها من مقارنة كتاب ونصوص وثقافات بأكملها من جانب إشكالي. وحتى الجوانب الجمالية -عبر هذا المنظور الثقافى الرحب- يمكن توظيفها وتوجيهها من أجل توضيح مستويات التوتّر في وجوها العرقية والجغرافية والأيدولوجية.

- ٢ -

في ضوء هذا المدخل الثقافى والحضاري الذي يستفيض البازعي في عرضه ويحسن تدشينه، يدلف بنا المؤلف إلى تناول موضوع الاختلاف بين الكُتاب الغربيين والنماذج الشرقية، وهموم الترجمة بوصفها معبراً ثقافياً، ومناوشة قضايا الأقلّيات، ومقاربة سؤال الهويات بين العرب واليهود، وإعادة فتح سؤال النهضة العربية الإشكالي على عدد من القضايا المحيطة بثقافتنا، وغير ذلك من موضوعات تشغل عقل المؤلف والقارئ العربي المعاصر على السواء. ففي مقاله التي تحمل عنوان «مواجهة الاختلاف: كتاب





العرب، تمثيلات الآخرين

يهودي، ثيودور أدورنو T. Adorno (١٩٠٣-١٩٦٩). كم هي كثيرة المواقف التي تعكس مثل هذه التناقضات إزاء اليهود؛ من ذلك مشاعر الاضطراب التي انتابت الروائي المصري الذي ينتمي إلى جيل الستينيات إبراهيم أصلان (١٩٣٥-١٩١٢)، في أثناء زيارة ثقافية لباريس عام ١٩٩٤، وهو كلام مذكور في كتاب أصلان (خلوة الغلبان- ٢٠٠٣) «والنص بعنوان: «جاك حسون وخلوة الغلبان»، ص ٨٢-٨٨»، وذلك لمجرد اكتشافه أن الشخص الجالس إلى جواره، وهو المحلل النفسي الفرنسي جاك حسون J. Hassoun (١٩٣٦-١٩٩٩)، يهودي من أصل مصري. يضاف إلى ذلك العبارة التاريخية المعروفة التي قالها طلعت حرب باشا للموسيقار المصري الكبير داوود حسني (واسمه الأصلي ديفيد حاييم ليفي): «تعرف يا داوود، كم كنت أرغب في أن تكون مسؤولاً عن المسرح، بس يا خسارتك في اليهود».

وعلى الرغم من اهتزاز الصورة بين العرب واليهود، سواء على مستوى التمثيل أو التمثيل، فإن مفكر يهودياً معتدلاً، هو اليهودي الأمريكي جيل أنيدجار J. Anidjar يرى أن كلا من العرب واليهود معاً ضحايا خطاب ثقافي أوروبي مضمحل يتعلق بتأجيج العداوة؛ ففي الوقت الذي يبدو أحد الطرفين (العرب) عدواً من الخارج، يبدو الطرف الآخر (اليهود) عدواً من الداخل. ولذا، فقد وجد مثل هذا التصور المتزن أصداءه الأكثر عمقاً ورحابة في خطاب أنيدجار الذي عالج الموقف المزدوج من كلا طرفيه معاً، متسانلاً عن مفهوم «السامية» الذي بزغ إلى الوجود في أوروبا القرن التاسع عشر، وكان يشمل العرب واليهود معاً، لكنه تراجع في ظل خطاب عالمي منحاز وغير موضوعي ليقصر على اليهود فقط دون غيرهم، فتلاشت بذلك فكرة الوحدة التي نشأ المفهوم على أساسها. وعلى الرغم من أهمية المحاولات المتلاحقة التي يقوم بها باحث أو مفكر معاصر مثل أنيدجار في البحث عن المشتركات وعناصر التلاقح الثقافي من ناحية، أو شاعر كبير مثل محمود درويش (وهو شاعر المقاومة الأول) الذي راح -في قصائده الأخيرة- يؤنس الآخر، ويؤنس الجندي الإسرائيلي/ العدو الذي لا يزال عدواً، من ناحية أخرى، فإن حالات سوء الفهم والعداء المتأصل بين الثقافتين العربية والعبرية، أو بين الهويتين العربية واليهودية، تحتاج إلى المزيد من المقاربات العميقة الهادئة، بعيداً عن أي شكل من أشكال العنصرية المسبقة أو العمى الثقافي المضلل.

الكتاب: مواجهات ثقافية: مقالات في الثقافة والأدب
Cultural Encounters: Essays on Culture and Literature

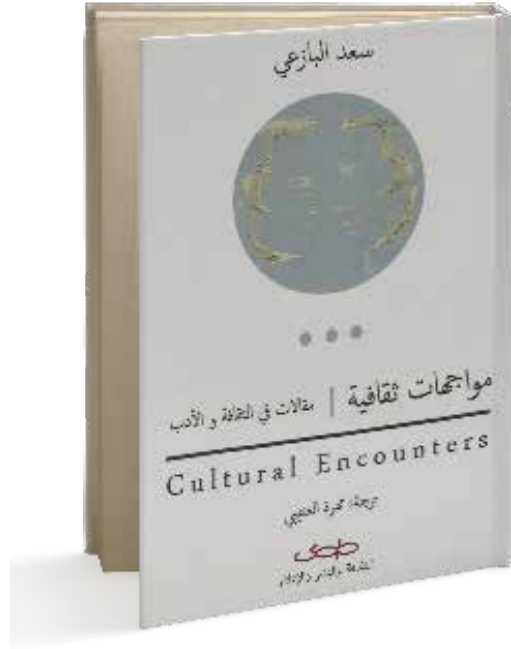
المؤلف: سعد البازعي.

الناشر: طوى للثقافة والنشر والإعلام.

مكان النشر: بيروت- لبنان.

لغة الكتاب: الإنجليزية (ترجمة إلى العربية: مهرة العتيبي)
سنة النشر: ٢٠١٤م.

• ناقد وأكاديمي مصري



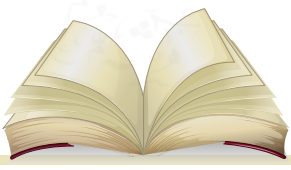
التوجهات الإسلامية- وصف «العداء المطلق» الذي يوازي «الشیطان الكامل». لكن التوصيف العلمي الذي قد يستغرق هذه الفرق أو الجماعات الثلاثة هو وضعية الجهل بالمفكرين اليهود المعاصرين ونتائجهم الفكري والمعرفي، باستثناء بعض الحالات ممن يعيشون في فلسطين، بحكم وعيهم الدائم، اليومي والآني، بالآخر اليهودي، كما في حالة الشاعر الكبير محمود درويش مثلاً، أو وضعية المفكر الكبير، الفلسطيني الأصل، إدوارد سعيد E. Said (١٩٣٥-٢٠٠٣)، والأمر نفسه ينطبق على بعض المثقفين الإسرائيليين المنفتحين على الثقافة المقابلة مثل الباحث والكاتب الإسرائيلي ذي الأصل العراقي ساسون سوميخ S. Somekh (١٩٣٣-) حين يتحدث عن الثقافة العربية.

-٤-

لعله من الغريب أن مفكراً كبيراً مثل إدوارد سعيد قد واجه حالة شبيهة بهذا اللون من ألوان سوء الفهم وعدم استيعاب الآخر في قلب أوروبا ذاته. ففي محاضرة له بعنوان «فرويد وغير الأوروبيين»، أشار سعيد إلى أنه قد وجد في بعض أعمال عالم النفس الشهير سيجموند فرويد S. Freud (١٨٥٦-١٩٣٩) «محاولة حذرة لانفتاح الهوية اليهودية على خلفيتها غير اليهودية»؛ بمعنى أن فرويد -من وجهة نظر سعيد- لم يكن يهودياً بالقدر الذي قد يبدو عليه بالنسبة إلى البعض، أو لم يكن متعصباً إلى يهوديته؛ فانبهرت لسعيد جاكين روز J. Rose (١٩٤٩-)، الأكاديمية البريطانية المعروفة، ذات الخلفية اليهودية أيضاً، رافضة في حدة النتيجة التي آل إليها تحليل سعيد لبعض أفكار فرويد، معللة ذلك بقولها إن «ثبات الهوية أمر يصعب الهروب منه». لقد كان سعيد يرى في فرويد بعض ملامح المثقف/ المفكر المثالي الذي يجد التجسيد الأبلغ له في المفكر اليهودي الألماني، أو النصف

الترجمة في هكذا حالة فعل ثقافي خلّاق لا ينبغي النظر إليه باعتباره مجرد نقل ألفاظ وعبارات وتراكيب ومعان من لغة إلى أخرى، بل هو فعل ثقافي وحضاري، يشتغل على أساس لقاء الثقافات لا صدام الحضارات، وذلك اعتماداً على مبدأ تحفيز المشترك الإنساني الأعظم الذي يقارب بين الشرق والغرب والشمال والجنوب في وحدة ثقافية كونية واحدة. من هنا، تحضر «قابلية الثقافات للترجمة» التي ليست إلا المسافة التي يترتب على ثقافة (أ) أن تقطعها باتجاه ثقافة (ب) أو (ج) باتجاه (د)، أو الحد الذي يمكن عنده ترجمة ثقافة ما إلى أخرى؛ وبذلك يتحقق نوع من أنواع المواجهة التي (قد) تحمي الشعوب، في لحظة من لحظات التاريخ البشري، من هوس الصدام وعنف الارتطام والتطاحن. فكلما زادت الصفات المشتركة التي تجمع بين الثقافات المتباعدة قلت بينها مسافة التوتر وتعاطف مستوى القابلية للترجمة (ص ٢٩). والأمر في ذلك -من وجهة نظري الخاصة- قريب الشبه كثيراً بفعل الاستعارة Metaphor التي تُدني بأطرافها بين المتباعد من الموجات. ولعلي لا أبالغ إذا قلت إن كل ترجمة استعارة أيضاً بمعنى ما، لكنها استعارة ثقافية، لا بلاغية محض.

لا يفوت كتاب البازعي النبش في قضية العرب واليهود التي سبق له الوقوف عندها تفصيلاً في دراسات سابقة، لا بوصفها قضية عابرة للعصور والأمكنة، بل من حيث هي ثيمة خصبة يمكن للباحث أو الناقد الثقافي تحليلها في متون أدبية وتاريخية ومذكرات وعدد كبير من النصوص الكتابية أو الشفاهية القديمة والوسيلة والحديثة، بدءاً من «ألف ليلة وليلة». بيد أن جوهر الإشكال الذي يفجره الكتاب الذي بين أيدينا يكمن في طبيعة معرفتنا أو نظرنا نحن العرب المعاصرين إلى اليهود، وما زان على هذه المعرفة من أيديولوجيات وتحيزات ابتعدت بنا كثيراً عن رسم صورة موضوعية لكل من الطرفين عن الآخر (العرب/ اليهود). فمجرد الإشارة في ورقة بحثية علمية في مؤتمر علمي تنظمه إحدى الجامعات المرموقة، ويضم عدداً من الأساتذة والباحثين والنقاد المعروفين من العرب وغيرهم، إلى كون سبينوزا B. Spinoza (١٦٣٢-١٦٧٧) يهودياً، على سبيل الإحاطة أو الوعي العلمي بالمرجعية الثقافية والدينية للفيلسوف، تقوم الدنيا ولا تقعد. والأمر كذلك ينطبق على جاك ديريدا J. Derrida (١٩٣٠-٢٠٠٤) أو نعوم تشومسكي N. Chomsky (١٩٢٨-) أو غيرهما ممن أسهموا في تشكيل الخطاب الثقافي والمشهد النقدي العالمي. ثمة حالات ارتباك واضحة وطبقات مترابطة من التشويش في رسم طبيعة العلاقة بين العرب واليهود بأشكال مختلفة. وهنا يسارع البعض، وهم الغالبية العظمى في هذه الحالة، إلى النظر إلى اليهود باعتبارهم هم فقط من يعيشون على هامش الحياة الثقافية والاجتماعية في العالم العربي (وهي صورة تختزل اليهود فيمن يعيشون داخل إسرائيل)، أو نرى البعض الآخر من المثقفين العرب، خصوصاً من اليساريين والليبراليين يتأرجحون على سلم التعصب والتسامح في نظرتهم الاعتبارية لليهود، أو يُصدر عليهم فريق ثالث -يتزعمه ذوو



رسالة عامة بابوية: «كن مسبّحاً» لحضرة الـ

محمد الحدّاد

تشهد العاصمة الفرنسية باريس، في بداية شهر ديسمبر ٢٠١٥، انعقاد المؤتمر العالمي للمناخ الذي تعلق عليه آمال كبيرة. وسيمثل المؤتمر فرصة للعديد من المشاركين للاطلاع على وثيقة من نوع خاص، هي الرسالة العامة للبابا فرنسيس، رئيس الكنيسة الكاثوليكية، حول العناية بالبيت المشترك. وقد صدرت في مايو ٢٠١٥، واتخذت عنواناً لها «كن مسبّحاً»، وهي عبارة مقتبسة من نشيد ديني للقديس فرنسيس الأسيزي (١١٨٢ - ١٢٢٦) الذي يشترك مع البابا في الاسم وفي الاهتمام بالبيئة.

التقليل من وقع الكارثة. وتحمل الوثيقة بوضوح مسؤولية هذه الكوارث للجهات التي تستفيد أكثر من غيرها من المنظومة الحالية، وتسعى إلى التقليل من أهمية القضية الإيكولوجية والتشكيك في المعطيات المتصلة بها. ولقد أصبح تدخل المرجعيّات الدينية مطلوباً، لا فقط إيقاف هذا الانهيار، ولكن أيضاً لتفادي أن تؤدي الوضعية البيئية إلى حروب طاحنة بين البشر.

وقد عرض البابا بعد هذا التشخيص للوضعية البيئية للعالم مبادئ الرؤية الإنجيلية للخلق. ومن الطبيعي أن يتساءل القارئ غير المسيحي عن سبب هذا العرض في وثيقة أعلنت أنها موجهة لكل البشر، ومنهم من لا يؤمن بوجود الخالق من الأصل، ويبرر البابا ذلك بضرورة فتح الحوار بين الدين والعلم، وضرورة الانفتاح على مختلف التأويلات الممكنة للواقع، فتقديم رؤية مسيحية لا يعني اعتبار هذه الرؤية الوحيدة الممكنة، وإنما يعني إثبات التزام المسيحيين مع غيرهم بالتصدي للكارثة الإيكولوجية من موقع الإيمان. وتقوم هذه الرؤية على العناصر التالية:

التصور الديني لخلق الكون والإنسان، باعتباره منحة إلهية، واعتبار وجود الكون سابقاً على وجود الإنسان، واعتبار الإنسان مسؤولاً عن الأرض التي سخرت له، وعلى هذا الأساس تؤوّل الوثيقة العديد من السرديات في الكتاب المقدس تأويلاً إيكولوجياً.

السّر الكوني الذي يجعل مفهوم الكون أوسع من مفهوم الطبيعة، ويربطه بأبعاد ليست كلها مدركة إدراكاً تاماً للإنسان، وبحضور إلهي متمسّر يضمن تواصل كل الموجودات وتطورها، وبقية ذاتية للكائنات الأخرى التي تشارك الإنسان الوجود في الكون وليست مجرد ممتلكات له. ج- مسؤولية كلّ المخلوقات في المحافظة على التجانس في الخلق كلّ، واعتبار الكون كتاباً إلهياً سامياً يوجّه الإنسان لتمجيد خالقه.

د- التشارك الكوني الذي يدفع إلى شعور الإنسان بأنه في علاقة مع أخيه الإنسان يقاسمه المسؤوليات ويرفض إقصاءه أو تجاهل مصيره.

هـ- اعتبار الملكية الفردية محدّدة بالغاية الكونية من وجود المخلوقات، وبتساوي كلّ البشر في الكرامة، وبمسؤوليتهم جميعاً في المحافظة على البيئة التي تمثل مكسباً مشتركاً.

و- أقوال السيّد المسيح المتضمنة في الأناجيل والتي تحث على العيش المتجانس مع الكون والمخلوقات، وسرّ المسيح الحاضر في الكون كلّ.

إلى تراجع مساحات الغابات والزراعات في العالم. ولقد ترتب على هذه الاضطرابات موجات من الهجرة التي لم تعد خاصة بعالم الحيوانات، لكن أصبحت تشمل المجموعات البشرية أيضاً، والأدهى أن الجماعات البشرية التي تضطر إلى الهجرة لأسباب مناخية لا تحظى بأي اعتراف من القوانين الدولية إذ لا تشملها صفة «اللاجئ».

ومن المخاطر الأخرى التي تحدد بيتنا المشترك تراجع الموارد الطبيعية، ولعلّ الماء يمثل الحالة الأبرز لأهميته القصوى في حياة البشر، وقد أصبحت الملايين منهم محرومين منه اليوم، لاسيما في البلدان الفقيرة. كما أنّ جودة الماء أصبحت ضعيفة في أجزاء كبيرة من العالم، وتكاثرت الأمراض والأوبئة المترتبة على شرب المياه غير النقية أو التي لم تتمّ معالجتها بالكيفية المطلوبة. ومن المخاطر أيضاً تراجع التنوع الطبيعي واختفاء الكثير من النباتات والحيوانات وإمكانية اختفاء أعداد أكبر في المستقبل، لا سيما في ظل التوظيف العشوائي للغابات والأراضي واستعمال المواد الكيميائية للترفيه من الإنتاج، بل بلغت أيضاً حدّ تلويث المحيطات والبحار والأنهار وتهديد الأجناس التي تعيش فيها وقد تصبح المحيطات قريباً مقابر مائية بعد أن كانت آية من آيات روعة هذا الكون وجماله.

ولقد تدهور عيش الإنسان بسبب التوسع غير المحكم للبناءات وغياب المناطق الخضراء في الأحياء الجديدة. ولا شك أن ما تشهده الأحياء الفقيرة خاصة من عنف وانتشار المخدرات وتصدّع الروابط الأسرية هو من نتائج انهيار التوازن بين الإنسان ومحيطه. والأدهى أن رسائل الاتصال الحديثة (الإنترنت، شبكات التواصل الاجتماعي...) تزيد الوضع تعقيداً بتحويل التواصل إلى عملية لهو، وتحول دون التفكير والحوار والاستماع إلى أصوات الحكمة. وتعمّق هذه المخاطر التفاوت بين البشر، فهي لئن كانت تسيء إليهم جميعاً فإن إساءتها للشرائح الأكثر فقراً هي الأعظم، وبدل محاولة تحسين أوضاع الفقراء فإن السياسات الدولية تكثفي بتوجيه برامج تحديد النسل بينهم. ويكثر الحديث دائماً عن مديونية الدول الفقيرة للدول الغنية، لكن نادراً ما يقع الحديث عن مديونية الدول الغنية في مجال تلويث المحيط وضرورة أن تعوّض بقية العالم على ما أحدثته صناعاتها من كوارث.

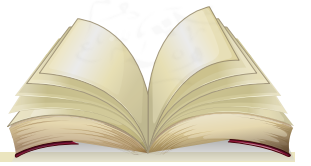
إنّ الأرض تننّ وتصرخ ولكن ردة فعل أبنائها مازالت محتشمة خجولة، لأنّ السياسات العامة واقعة تحت سطوة التكنولوجيا والمال، والأوساط الاقتصادية تعمل جاهدة على

يدفعنا إلى تقديم هذه الوثيقة الطابع الحوارية الذي اعتمده، إذ اختار البابا أن يتوجّه برسالته إلى كلّ المخلصين من البشر ولا يجعلها خاصة بالمسيحيين، باعتبار أنّ مصير الجميع مرتبط بمصير الأرض، لذلك وصف هذه الرسالة بأنها دخول في الحوار مع كلّ أفراد «بيتنا المشترك». ولقد انطلقت الوثيقة من النشيد المذكور الذي يحمّد الربّ على أنّه وهب الإنسان هذه الأرض التي يصفها بالأخت وبالأمّ، وهي التي تصرخ اليوم وتئن من وجع الأضرار التي لحقت بها جراء الاستعمال غير المسؤول والاستغلال الفاحش لما وهب الله فيها من خيرات. لقد نسي الإنسان أنّ الأرض هبة من الربّ وجعل يتصرّف فيها تصرف المالك المهيمن، فوقع ضحية لما تحمله قلوب البشر من نزعات عنف، كما نسي أيضاً أنّ جسده لا يبدو أن يكون تركيبة من عناصر من هذه الأرض. فما هي المضامين التي يقترحها البابا لهذا الحوار؟

لعلّ أهم ما يميّز هذه الدعوة فتاعة صاحبها بأن إنقاذ بيتنا المشترك لا يمكن أن يحصل إلاّ باتحاد كل الأسرة البشرية للقيام بذلك، وقناعته بإمكانية تحقّق هذا الاتحاد وتحقيق الإنقاذ قبل فوات الأوان. ومن هنا تنتزل الدعوة إلى الحوار من أجل تحقيق هذا الهدف المشترك. لقد ظهرت منذ عقود الحركة الإيكولوجية وحققت العديد من المكاسب لكنّ جزءاً هاماً من البشر لم يع بعد بأهمية هذا الموضوع، فلا بد من بناء تضامن كوني يشمل عدداً أوفر من البشر، من خلال توجّه كل مرجعية دينية وثقافية إلى أتباعها ومريديها ودفعهم إلى الانخراط في هذه المهمة الحاسمة.

ويتضح من خلال التحاليل والدراسات التي قام بها العلماء أنّ الأرض تعاني من استغلال مفرط لخيراتها، وأنّ هذا الإفراط لا يفرضه بالضرورة تنامي أعداد البشر أو ضرورة توفير وسائل العيش لهم. ولقد فقد الإنسان الحديث إيمانه المطلق بالتقدّم وأصبح ينظر إلى التحوّلات بعين ناقدة. وهو يرى اليوم أنّ التلوث أصبح يحيط بالجميع ويهدّد البيئة والصحة ويتسبب في ملايين الوفيات. وتلقي سنوياً مئات ملايين الأطنان من الفضلات البعض منها مضرّ بالبشر، والبعض الآخر غير قابل للانحلال في الطبيعة. وإذا قارنا النظام الطبيعي وبالنظام الصناعي السائد حالياً، أدركنا كيف أنّ الأوّل قائم على التكامّل، بينما يعجز الثاني عن إعادة استعمال ما يلفظه أو يتخلّى عن استهلاكه. ولقد أصبح المناخ يعاني من اضطرابات عديدة أبرزها الاحتباس الحراري، ولم يعد قابلاً لاستيعاب نمط الحياة السائد، إذ يمثل هذا النمط، وتحديدًا إنتاج الغازات السامة، السبب الرئيسي لهذا الاحتباس، إضافة





بابا فرنسيس حول العناية بالبيت المشترك

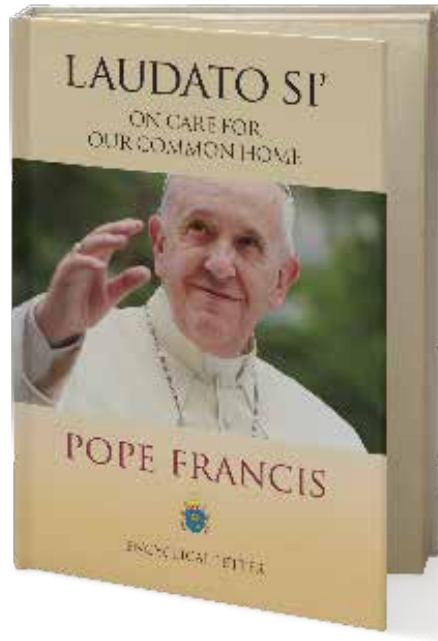
وتمثل قضية البيئة، مثل قضايا أخرى (مكافحة الجوع والأوبئة واستغلال الأطفال...) ميادين متميزة لهذا العمل المشترك، حيث يمكن لكل الأديان والمذاهب أن تصبح عامل ضغط قوي يدفع الساسة وأصحاب القرار إلى اعتماد سياسات متوازنة وبعيدة المدى، وينشر الوعي لدى الرأي العام بأهمية هذه القضايا وخطورتها على مستقبل الإنسان، ثم خاصة يعدل من تصرف الإنسان الحديث المنغلق في الاستهلاك دون تقدير للعواقب على الأجيال القادمة.

ومن المهم أيضاً أن تفتح السلطات الدينية على النقاشات الدائرة بين الخبراء والعلماء في تحديد المخاطر الحالية على الكون، ونعلم أن هذه النقاشات تتميز أيضاً بالكثير من الخلافات، فالبعض يضخم هذه المخاطر والبعض يقلل من شأنها، وقد تبنت الوثيقة بجرأة الطرح الأول، مع أنها تفادت الدخول في تحديد الأرقام والنسب، وهذا يعني أن حوار الأديان ينبغي أن لا يقتصر في هذا الميدان أو غيره، على رجال الدين فحسب، بل يكون أكثر فائدة إذا تفاعل مع الخبراء والعلماء للاستفادة من بحوثهم وتشخيصهم للوقائع ومقترحاتهم للإصلاح.

ولقد تجنبت هذه الوثيقة الحديث باسم الأديان الأخرى، لكنها قامت على افتراض إمكانية أن تلتقي كلها على نفس المبادئ العامة، فاكتفت بعرض المبادئ المسيحية، وهذا أمر مفهوم ومنطقي، فلا نجد إلا إشارة عابرة لموقف متصوَّف مسلم. لكن من الواضح أن حواراً بين الأديان يتخذ له محورا قضية البيئة يمكن أن يمثل فرصة ثمينة لتطوير وجهات نظر دينية مختلفة ومتقاطعة في هذا الموضوع. وأخيراً، نلاحظ أن الوثيقة قد استعملت مرة واحدة عبارة «التراث اليهودي-مسيحي»، غير أن هذه العبارة حديثة ولا شك أنها لم تكن مستعملة لدى القدامى، مثل فرنسيس الأسيزي، ونفضل من موقعنا الحديث عن التراث «الإغريقي-التوحيدي» المشترك الذي صاغ في القديم أطروحة التجانس الكوني والتسخير والعناية الإلهية في صياغتين، فلسفية ودينية، نجدها لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين على حد سواء، وينبغي أن يضاف إليها اليوم الراشد الشرق-آسيوي (الهندوسية، الكنفوشوسية، البوذية...) الذي يدافع عن المبدأ ذاته ولكن من منطلقات ومقولات ومفاهيم أخرى. وبذلك يتحقق الإجماع الديني الكوني على ضرورة حماية «بيتنا المشترك» الذي يتعايش تحت سقفه أتباع كل الأديان والمذاهب.

الكتاب: رسالة عامة بابوية: «كن مسيحا» (Laudito si)
المؤلف: حضرة البابا فرنسيس حول العناية بالبيت المشترك
لغة الكتاب: الأصل بالإيطالية مع ترجمات رسمية للفرنسية والعربية والإنجليزية والإسبانية إلخ
الناشر: حضرة الفاتيكان / 24 مايو 2015 (Libreria Editrice Vaticana)

● أستاذ كرسي اليونسكو للدراسات المقارنة للأديان



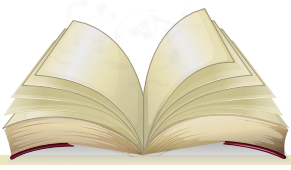
على اتخاذ قرارات تحد على الإفراط في الاستهلاك، ولو لم تكن شعبية. ويبقى الأهم في هذا كله رفع وصاية الاقتصاد والربحية والاستهلاك على إدارة السياسات العامة ودعوة المؤمنين في العالم كله، وهم الأغلبية من البشر، على أن يوحّدوا بين إيمانهم وأعمالهم ويتجنّبوا كل ما فيه ضرر بغيرهم، وأن يتحرّروا من الشعور بالخوف والضياع والأنانية الذي يغمر العالم الحديث المتحرّر من القيم ويعتصموا بالإيمان للتخلّص من الأنانية ويتخلصوا من نعت الحياة القائم على الاستهلاك المفرط وأن يجد كل أتباع دين في تراثهم الديني والروحي ما يُسهّل عليهم تحقيق هذا الغرض.

اعتقد أن المسلمين سيوافقون البابا على الجزء الأكبر من تحليله للوضع البيئي وكوارثه الحالية، وعلى الحلول التي يقترحها لإصلاح هذا الوضع، فالإسلام أيضاً يعتبر الإنسان متصرفاً في الأرض وليس مالكا لها، وفي القرآن الكريم آيات عديدة في معنى التسبيح الكوني للخالق: «تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفورا» (الإسراء: 44)، وكل الأديان عموماً تنبذ الأنانية والفساد. ففكرة قيام حوار بين الأديان والفلسفات تتخذ لها محاور واقعية من حياة الإنسان، مثل محور البيئة، فكرة جيدة وقد تساهم في إخراج حوار الأديان من التكرار أو خطابات المجاملة وتجعله وسيلة لتحقيق منافع حقيقية للبشرية جمعاء. وقد أصبح من باب المسلمات اليوم بين الفاعلين في هذا الحوار أن الغاية من الحوار ليست تغيير العقائد بل البحث عن مواطن الاشتراك ودفع الجميع إلى العمل معاً في ما يمكن الاتفاق حوله.

يتعين، بعد تحديد حجم المخاطر ومساءلتها من موقع القيم الإيمانية، البحث في الجذور العميقة للمشكلة، كي لا يقف التحليل في مستوى الأعراض، وهذه الجذور ترتبط أساساً بالهيمنة المطلقة للتكنولوجيا. ذلك أن العصر الحديث حقّق على مدى قرنين طفرة تكنولوجية غير مسبوقه تضمنت الكثير من الإيجابيات لكنها تضمنت أيضاً العديد من المخاطر، سواء من ناحية الإبداعات التكنولوجية ذاتها أو من ناحية الجهات التي يمكن لها أن تتصرف بهذه الإبداعات تصرفاً غير سليم. لقد تطورت القدرة التكنولوجية للإنسان دون أن تتطوّر تربيته القيمية وقدرته على ضبط تلك القدرة. وأصبح الناس متعودين على أن يعهدوا للسياسات التكنوقراطية بمهمة حل مشاكلهم، وهيمنت هذه الرؤية على الاقتصاد الذي ربط التطور التكنولوجي بالأرباح المترتبة عليه ولا غير، واعتبر السوق وحدها قادرة على ضمان التطور الإنساني والاندماج البشري. لقد وضع الإنسان الحديث نفسه في مركز الكون، ثم جعل العقل التكنولوجي فوق كل الحقائق الأخرى، فانتهى إلى الخضوع الكلي لهيمنة التكنولوجيا.

لا يمكن اليوم حل مشاكل البيئة إلا بموقف جديد يقوم على إخضاع التكنولوجيا للقيم والسعي إلى إنشاء «إيكولوجيا شاملة» تضم المجال البيئي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وتتنزّل في الحياة اليومية للإنسان. وكل القرارات التي تتخذها السياسات العامة ينبغي أن تدرس من كل وجوه تأثيراتها على الإنسان وعلى غيره من الموجودات في الكون، كما لا توجد قرارات نمطية يمكن أن تطبق دون الأخذ بعين الاعتبار اختلاف السياقات والثقافات. وبعبارة أخرى، لا يمكن تسليم إدارة بيتنا المشترك للتكنوقراط، بل ينبغي أن يدار حسب ما يتوصّل إليه الحوار بين مختلف مكوناته الثقافية والدينية والفلسفية، وما يتحدّد في ظل هذا الحوار من قيم وأهداف مشتركة، وما يقع الاتفاق عليه عندما يطرح على الجميع سؤال: أي عالم سيرثه عنكم أطفالكم؟

وقد تضمنت الوثيقة مجموعة من التوجيهات والمقترحات العملية المساعدة على حل المشكلة. وأهم ما ينبغي مراعاته في هذا المجال أن تكون كل الحلول المقدمة ذات صبغة شاملة ولا تحقّق مصالح جزء من البشر على حساب جزء آخر. وثمنت إنجازات سابقة في مجال البيئة، مثل قرارات مؤتمر الأرض سنة 1992، ومعاهدة «بال» العالمية حول مراقبة التخلص من النفايات السامة، ومؤتمر الأمم المتحدة حول التنمية المستدامة سنة 2012. بالمقابل، شكّكت في بعض القرارات الأخرى مثل تبادل «صكوك الكربون» بين الدول الغنية والفقيرة. كما دعت الوثيقة البلدان الغنية إلى تحمّل الأعباء الإضافية التي تترتب على تطبيق سياسات إيكولوجية في البلدان الفقيرة، وتوقيع معاهدات دولية في مجال حماية البيئة وإنشاء هيئات مراقبة ذات فاعلية وجدوى، وتشجيع الطاقات البديلة، وإلزام كل المشاريع الكبرى بتقديم دراسة محايدة في الآثار البيئية قبل البدء في إنجاز المشروع، والجرأة



أوروبا الألمانية: طبيعة جديدة

عمر كايد

يبدأ المؤلف أولريش بك كتابه بتحذير لتوماس مان، في خطاب ألقاه في هامبورج عام ١٩٥٣، من عودة التطوع إلى «أوروبا الألمانية». يحاول أولريش في هذا الكتاب رصد التغيرات التي تشهدها أوروبا الجديدة، والسياسات الخطرة التي اعتمدها ألمانيا لإخضاع الدول الأوروبية الفقيرة، وترسيخ تبعيتها لها. ويُسَلط الضوء على العواقب والتداعيات والتهديدات المنتظرة، ثم يطرح بعض الحلول لإنقاذ أوروبا من الانهيار، أهمها عقد اجتماعي أوروبي جديد، يفضي إلى مزيد من الحرية والأمن الاجتماعي.

العالم، مثل كارثة المفاعل الذري في تشيرنوبل، وانهيار الاتحاد السوفياتي، وأحداث ١١ سبتمبر، والأزمة المالية، وأزمة اليورو. ولنظرية المخاطرة التي يقدمها الكاتب، هي نوع جديد من السياسة، يؤدي إلى تغيير أسس المجتمع والسياسة من القواعد القديمة وقيود المؤسسات، لأن المرافق القديمة لا تتناسب ولا تحل المشاكل القائمة. فمجتمع المخاطرة مجتمع ثوري لم يعد الفصل فيه ممكناً بدقة بين الحالة العادية ومثلتها الاستثنائية. فيما يتعلق بالتهديد الذي يطرح تساؤلاً عن حالة اليورو والاتحاد الأوروبي. ويدور الأمر ضمناً كذلك على حالة الاستثناء التي لم تعد منحصرة داخل دولة وطنية منفردة. إننا نواجه الآن حالة استثناء فيما وراء الوطنية. مجتمع المخاطرة يحتم علينا مواجهة المخاطرة الجديدة والتعامل معها بسرعة وحزم.

يقدم أولريش بك اقتراحين كي يتطور الاتحاد الأوروبي، الأول تخطي التاريخ الحربي لحكومات الأوطان، وترويض الأزمات الحالية بنهج التعاون الديمقراطي، والثاني، أن تقوم مجموعة من الخبراء وتتفق على استراتيجية معينة، دون الالتفات إلى معارضة بعض البرلمانات، لأن المعارضة هنا غير مشروعة، فتغليب المصلحة العامة للاتحاد مقدمة على المصلحة الوطنية. يتطلع الكاتب بعيداً، ويتساءل: هل من المعقول أن يكون هناك رئيس أوروبي، وأن يتم اختياره من كل الأوروبيين، وأن يكون ذلك من خلال معركة انتخابية مشتركة وعلنية في كل أوروبا؟ وهل نستطيع أن ندفع الحكومات الوطنية للتنازل عن مراقبة أعمال البنوك في أوروبا كي يكون لها استقلاليتها في اتخاذ القرارات بطريقة مرنة وفي الوقت المناسب؟ يقول رئيس البنك المركزي الأوروبي ماريو دراغي في أحد تقاريره في شهر مايو ٢٠١٢: «الواجب علينا أن نقوم معاً بتحديد طريق اليورو.

وسياسة الاتحاد الأوروبي. فالكاتب يرى أن معظم الدول تُعطي الأولوية للسياسة الداخلية وتخشي الناخبين والإعلام المحلي، وهو ما يجعل حركة الإصلاح للاتحاد الأوروبي بطيئة. على سبيل المثال، قد يُعارض البرلمان الألماني قانوناً يصب في مصلحة الاتحاد، لكنه يضر الاقتصاد الداخلي. وعليه، يدعو الكاتب إلى انتهاج سياسة جديدة أكثر مرونة، يتواءم فيها العام مع الخاص، دون أن تكون الحكومات المحلية معرقله لمشاريع الاتحاد.

هذه الأزمة التي عصفت بالاتحاد الأوروبي لا تقتصر على الشق الاقتصادي، بل هناك أبعاد أخرى ربما أكثر أهمية. فالأزمة - برأيه - أدت إلى تصدع العلاقات بين بلاد شمال وجنوب المجموعة الأوروبية، وازداد الأمر سوءاً عن طريق موجات اللجوء المتزايدة وما تسببت فيه من تكاليف باهظة. فالهاجرون غير الشرعيين يثقلون بشكل أساسي على الدول الضعيفة، كالليونان وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا، لأن قانون الحدود المطبق في بلاد المجموعة الأوروبية يلزم البلد التي يتدفق عليها اللاجئين باستضافتهم. ولهذا بدأت بعض الدول تعتمد إلى استخدام القوة ضد المهاجرين غير الشرعيين، وبدأت تظهر موجات من العداوة والكراهية للأجانب؛ وهو الأمر الذي بدأ يهدد قيمة أوروبا وصورتها أمام العالم. لهذا يُشدد الكاتب على ضرورة التوصل إلى صيغة اتحاد جديد، لديه القدرة على إيجاد التغيير الجذري ومواجهة التحديات، دون الاضطرار للجوء إلى السياسة العدائية للأجانب واستخدام القوة، ودون أن تسيطر بعض الدول على سياسة ميزانية دول أوروبية أخرى، لأنها قدمت لها الدعم المالي.

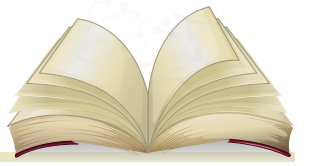
في المبحث الثاني يتحدث الكاتب عن التنسيق الجديد للقوة في أوروبا وكيفية ظهور أوروبا الألمانية. فالأزمات والكوارث باتت تتصف بالعودة وتنعكس على معظم

يوضح الكاتب في المقدمة منهجه الذي اعتمد عليه في مقارنة هذه المسألة، حيث يقول: «يستهدف عملي هذا تحليلاً جديداً للأزمة. آثرت فيه الاعتماد على الأخبار الواردة يومياً عن طريق التلفاز أو على الصفحات الأولى للجرائد، ثم استخراج ما يخص موضوعنا فيها. وتعتمد قراءتي لها على نظرتي في المخاطرة». في الفصل الأول يتحدث عن أزمة اليورو الاقتصادية، والأسباب التي أدت إليها، وتداعياتها الخطرة على الاتحاد الأوروبي. يرى الكاتب أن السبب الأساسي للأزمة هو سياسة التقشف التي كرسها ألمانيا، حيث أفضت إلى تفكك الاتحاد الأوروبي، وحدوث انشقاقات عديدة داخله، وضرب مفهوم الديمقراطية والمشاركة، والتدخل في شؤون الدول الضعيفة. فقد اشترطت ألمانيا مثلاً عام ٢٠١٢ على اليونان أن تعتمد سياسة التقشف لتحصل على الدعم من الضرائب الألمانية. يتساءل الكاتب، ماذا سيحدث لو عارض البرلمان اليوناني هذه الوسيلة المقررة من دول أخرى دون استشارتهم؟ وماذا لو رفض المواطنون الألمان أن تذهب ضرائبهم إلى اليونانيين المفلسين؟

أما السبب الثاني فهو برأي الكاتب النظرة الاقتصادية العمياء والمؤدية بسلوكها إلى العمى الاجتماعي والسياسي. حيث يبني خبراء الاقتصاد الأوروبيون سياساتهم من خلال عيّنات بعينها، وإن لم تتناسب هذه العيّنات تظهر المشكلة، كما هو الواقع الآن. فخبراء الاقتصاد يناقشون بعض الخيارات لإنقاذ اليورو، منها إبعاد اليونان أو البلاد الأخرى عن اليورو. لكنهم لم يناقشوا التبعات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي ستعكس على أوروبا، فيما لو اتخذ القرار، وانهيار الاقتصاد اليوناني.

ينتقل أولريش بك للحديث عن السياسة الداخلية في أوروبا، وفوضوية المفهوم الوطني للسياسة، وما أدت إليه من تناقض بين السياسة الخاصة بالدول،





للقوة في ظل الأزمة الاقتصادية

البلاد التي تن تحت عبء الديون (إيطاليا، إسبانيا، اليونان، وربما قريباً فرنسا)، ويجب العمل على إقناع بعض الدول الأخرى بالانضمام إليهم لتنفيذ هذا العقد الجديد، لمنع التفرّد الألماني بقرار أوروبا الاقتصادية.

لقد أن الأوان لكل من طبقة هامش المجتمع، وأهل الطبقة الوسطى المهدين بالانهيار، والشباب الذين أتموا دراستهم وليست لديهم وظيفة، وكبار السن الذين تعرضت معاشاتهم للخسار؛ أن الأوان لكل هؤلاء الذين واجهتهم سياسة التقشف الألمانية، أن يتعاونوا، ويجاهدوا من أسفل تطلّعاً إلى اتحاد يلتزم بأسس سياسية وديمقراطية اجتماعية، لأنّ هذا وحده هو السبيل لمواجهة أسباب كارثة الأحوال المالية، وقيام ربيع أوروبي.

في تقديرنا، قدم الكاتب قراءة واقعية لما تشهده أوروبا في الوقت الراهن، والأزمة الكبيرة التي تعيشها الدول الأوروبية بعد أزمة اليورو. طرح الإشكالية في المقدمة، ثم بدأ يشرح أسباب الأزمة في مباحث الكتاب، لينتهي في الختام إلى تقديم رؤية لكيفية خروج الاتحاد الأوروبي من هذا المأزق، الأمر الذي يظهر مدى التناسق المنهجي في مقاربة هذه المسألة.

لكننا نرى أنّه من المفيد للقارئ لو قدم الكاتب بعض الشروحات في الهوامش لبعض المصطلحات الاقتصادية، أو بعض الأشخاص، أو بعض الحوادث. على سبيل المثال، في الصفحة ٢٤ يورد عبارة «نظام سعر الصرف الثابت»، وفي الصفحة ٢٥ يتحدث عن إفلاس بنك ليمان براذر. ألم يكن من المفيد لو شرح معنى نظام سعر الصرف الثابت، ليتسنى للقارئ غير المختص في الشؤون الاقتصادية فهم هذه العبارة. أو ليس من الأفضل أيضاً لو شرح بعدة أسطر عن بنك ليمان براذر وسبب إفلاسه.

الكتاب: أوروبا الألمانية: طبيعة جديدة للقوة في ظل الأزمة الاقتصادية
المؤلف: أولريش بك،
الترجم: د. محسن الدمرداش
الناشر: منشورات الجمل، بيروت- بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠١٥،
الصفحات: ١١٩ صفحة.

● عمر كايد: كاتب لبناني

«الأمير»: «هل الأفضل أن يحبك الناس أو يخشوك؟ وتقول الإجابة إنّ على نفسك أن تصبو إلى كلتا الحالتين؛ لكن بما أنّ رفض كلتا الحالتين عليك عسير، فأنت يخشاك الناس أفضل من أن يحبوك، طالما ليس بالإمكان سوى واحدة فقط من كلتا الحالتين». وقد اتخذت أنجيلا ميركل هذا المبدأ بمعنى أوسع، حيث سعت إلى أن يحبها أهل الوطن ويخشاهم الأجنبي. فللمكيافيلية أربع تركيبات: ربط أرثوذكسي الحكومة الوطنية وهندسة تصميم أوروبا، وفن التردد بوصفه استراتيجية تنظيم، وأولوية الأهلية الانتخابية، وكذلك الحضارة الألمانية الراسخة، يتمثل جميعها في تكاتف لبناء قوة أوروبا الألمانية. لكن وبحسب المعطيات الحالية لم تؤد هذه السياسة الميركيافيلية التقشفية إلا إلى مزيد من التأزم، حيث اتسعت أزمة الديون لتهدد إسبانيا وإيطاليا، وربما فرنسا بعد سنين. وقد ازداد الفقراء فقراً، وأصبحت الطبقة المتوسطة مهددة بالانحسار.

في المبحث الثالث يؤكد الكاتب متأثراً بجان جاك روسو أنّه لا بد من عقد اجتماعي جديد، للخروج من الأزمة. القاعدة الأساسية التي يجب الانطلاق منها، هي أن تزايد حرية الأوروبيين وأمنهم الاجتماعي، وارتفاع منسوب الديمقراطية، لا يكون إلا بازدياد تمسك كل منهم بهوية بلده الأوروبية. وعلى هذا المبدأ يُشدد عدد من أهم الباحثين الأوروبيين، وفي مقدمتهم المستشار الألماني السابق هلموت شميت، وعالم الاجتماع الألماني يورغن هابرماس، والروائية والمثلة الألمانية- النمساوية زنتا برجر، والرئيس الثامن للمفوضية الأوروبية جاك ديلور، والرئيس الألماني السابق ريتشارد فايتسرك، والروائي المجري الحاصل على جائزة نوبل عام ٢٠٠٢ إمري كريتيشي. فنمو الديمقراطية والحرية يبدأ - برأي هؤلاء- من أسفل، فليس هناك «شعب أوروبي»، بل أوروبا الأفراد الذين سوف يصبحون ذوي سيادة بالديمقراطية الأوروبية، ويطالبون بالدخول في عام حرية الإرادة الأوروبية. ولا يجوز أن تكون لدى الجيل الجديد وصفوة المثقفين وحدهم إمكانية التحدث عن بلد أو منطقة في أوروبا، بل يتحدث عنها أيضاً الموظفون والعاملون.

لكن السؤال هو من سيقوم بتنفيذ العقد الاجتماعي الجديد؟ يقترح أولريش بك تشكيل حكومات شعبية لديها الاستعداد والقدرة على القيام بدور طليعي، وتستطيع أن تسترد موقع القوة الوطني والمكانة في أوروبا والعالم. ويرأيه، يجب عقد هذا التحالف بين

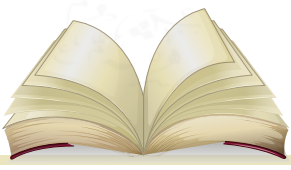
وإذا أردنا أن يكون لدينا اتحاد صالح، يتحتم علينا قبول نقل السلطة المالية من الحكومات الوطنية إلى منشأة حكومية أوروبية». لأنّ انهيار الاتحاد سيؤثر سلباً على جميع أعضائه، وربما على العالم بأسره، فانهيار الاتحاد السوفياتي أدى إلى عوثة الرأسمالية، ما انعكس بتداعيات خطيرة على الكثير من المجتمعات بعد الأزمة المالية. لهذا ووفق منطق المخاطرة ينبغي على قادة الاتحاد الأوروبي أن يجتمعوا للبحث عن إمكانيات جديدة.

ينتقل أولريش بك بعدها للتحدث عمّا يسميه «منطق تهديد المخاطرة» عوضاً عن «منطق تهديد الحرب». فمنطق الحرب يرتكز على التسليح، ورد الأعداء، أو الاستسلام لهم، ويؤدي بالنتيجة إلى تضرر الجميع، كما يجري الآن في سوريا، أو في العداء المتواصل منذ عقود بين إيران وإسرائيل. أما منطق تهديد المخاطرة، فيرتكز على التعاون لمنع وقوع الكارثة على الجميع، ويؤدي إلى القضاء على نظرة العداء للآخر. فمنطق المخاطرة يفتح أفقاً أخلاقياً، تستطيع الحضارات والدول من خلاله أن تتقدم، محولة التناقضات إلى تعدد. ففي حالة المخاطرة يصح المنطق المضاد: ليس غلق الحدود، والتحصين وراء العدو الوهمي ونظام التسليح المتقدم؛ بل التعاون والتفاهم على الحدود، وشمول الآخرين وطنياً ودينياً...

في الجزأين الثاني والثالث من هذا الفصل يتحدث الكاتب عن الطبيعة الجديدة للقوة في أوروبا، وكيف استندت المستشار الألمانية أنجيلا ميركل إلى نظرية مكيافيلي في السلطة، وسبل استغلال الأزمات لبناء وترسيخ معادلات جديدة. يرى أولريش بك أنّ ميركل هي الملكة غير المتوجة لأوروبا بأسرها. أما مصدر سلطتها وقوتها فيعود إلى ميل المستشار الألمانية إلى اعتماد أهم قوانين مكيافيلي، وهو المماثلة بهدف الترويض (اعتماد سياسة نعم/لا)؛ حيث تضع المواطن الأوروبي والدول الأوروبية أمام خيارين: إما أوروبا بلا يورو، وبالتالي انهيار أوروبا، أو أوروبا ألمانية. فألمانيا أغنى بلاد المجموعة الأوروبية وأقواها اقتصادياً. وفي نطاق الأزمة المالية ترتبط كل البلاد المدينة باستعداد الألمان للتضامن معهم بالقروض الضرورية. ولكي تتضامن برلين، لا بد أن تفرض شروطها، وتحدد مسار المجموعة الأوروبية.

يقول الكاتب: (وهكذا تُثبت ميركل بجلاء أنّها تلميذة نجيبية لأستاذها مكيافيلي الذي تساءل في كتابه





ما بعد الرأسمالية

مروان إسكندر

يحفز هذا الكتاب لبول مايسون القارئ على محاولة تفهم أبعاده لأسباب متنوعة. من جهة أولى، الكاتب معلق اقتصادي بريطاني يشرف على البرنامج الاقتصادي لمحطة التلفزيون News 4 Channel، كما وضع عددا من المؤلفات إضافة إلى كتابته المقالات لجريدة الغارديان Guardian وجريدة نيوزستيانمن NewStateman.

إضافة لخلفية المؤلف ودوره، يوحي عنوان الكتاب بالعودة إلى النظام البديل للرأسمالية، أي ما بعد الرأسمالية، والمفهوم السائد أن الأنظمة البديلة منها الشيوعية كنظام شامل متكامل أو الاقتصاد الرعائي Welfare Economics الذي هو نظام مختلط يسعى لتأمين مستويات حياتية جيدة للمواطنين على صعيد الغذاء والكساء، والعلم والصحة والسكن.

يتجاوز المؤلف هذه المقارنات وهو ينظر إلى نظام ينتج عن تعميم وسائل وأدوات المعلوماتية في جميع زوايا حياتنا بحيث تصبح الكلفة الحدية للإنتاج Marginal Cost مقارنة للوفر، والكفاية تعم المجتمعات، ويستطيع الإنسان المشاركة في الإنتاج أو تتبع هواياته على مختلف أنواعها.

كانت وليدة الفترة الستالينية وما بعدها حتى تولى غورباتشوف رأس السلطة وبدء التفكير بالانفتاح بشكل مبسط من قبله.

رغم ابتعاد المؤلف عن دراسة تطور اقتصاد الاتحاد السوفياتي خلال الفترة الستالينية وما بعدها وحتى انتخاب غورباتشوف لقيادة الحزب وطرحه أفكار الإصلاح الإداري والانفتاح التبادلي على الغرب يشير إلى دراسات وصفها اختصاصيون أمريكيون وروس لصالح الجيش الأمريكي حول النمو الذي تحقق في روسيا خلال الفترة المذكورة 1930-1982.

تبين الدراسة أن معدل النمو التراكمي للاقتصاد السوفياتي كان على مستوى 4,2 في المئة سنوياً على مدى هذه السنوات، علماً بأن الاقتصاد الغربي نما بسرعة بعد الحرب العالمية الثانية وتعرض لأزمة انكماش استمرت من 1973 وحتى 1982 بسبب التخلي عن نظام مالي دولي كان يربط الدولار بالذهب، وارتفاع أسعار النفط بقوة ما بين 1973 و1979.

الاتحاد السوفياتي لم يعانِ من أزمة كالتى واجهت العالم الغربي، وكان حقق قبل بزوغ عقد الخمسينيات التحكم بالطاقة النووية، وانخفضت مخاوفه من سلطوية الغرب العسكرية، وأصبح معدل دخل الفرد في الاتحاد السوفياتي عام 1980 على مستوى 0,7 في المئة من مستوى دخل الفرد في الولايات المتحدة، وكان موازياً لمعدل دخل الفرد في إيطاليا التي حققت معجزة بزيادة قوتها العاملة ما بعد الحرب وحتى أواخر الستينيات بـ 17 مليون عامل وعاملة إضافة لتنوع الإنتاج.

لقد كانت أفكار بوغدانوف بعيدة عن البرامج التي أراد السوفيت اعتمادها بعد عام 1928، ومن ثم أبعد بوغدانوف عن ممارسة السلطة وأعدم بعد ذلك عام 1936 لأن ستالين ورفاقه أرادوا تسريع التصنيع والإنتاج الزراعي ولو على حساب الحريات وكبح تطلعات الشعب الروسي للديمقراطية، وبما أن تروتسكي الذي كان يعتبر القائد المفكر، كان يعتبر أن التعليم والتواصل بين الأفكار من ضرورات النجاح، أقصى هو أيضاً واختار الانعزال في المكسيك، لكن أفكاره استمرت في تنغيس مناخ تحكم ستالين فأرسل إليه قاتلاً محترفاً اغتاله عام 1940.

يعتبر المؤلف بول مايسون أنه ينتمي فكرياً إلى ماركس وآرائه المسجلة عام 1860 وبوغدانوف وأن التطورات التقنية المتسارعة في عوالم المعلوماتية وتطبيقاتها المختلفة يمكن أن تؤدي إلى توافر السلع مقابل اللا كلفة - وهذا أمر صعب تصوره - والمؤلف يُعطي مثال الويكيبيديا Wikipedia - المكتبة الإلكترونية المتوافرة لأي طالب معرفة حول أي شأن والتي يعمل على تكامل معلوماتها حوالي 26 ألف مراسل، ولأي إنسان إمكانية التعرف إلى وسائل عمل، وعلاجات، ومعارف تاريخية عبر الاتصال بالويكيبيديا.

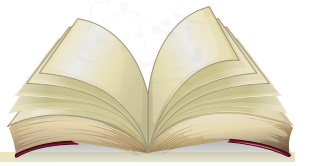
يعترف المؤلف أن المجتمع الذي يتصوره، لما بعد الرأسمالية والذي شاء تصوره عام 2075، أي بعد ستين سنة يستند إلى تفكير مثالي أو طوباوي Utopian، ومعلوم أن الشيوعية حددت أهدافاً يمكن وصفها بالطوباوية وتبنت وسائل ضبط وإخضاع تخالف جميع الاعتبارات الإنسانية، لكن هذه الشيوعية

بداية، يؤكد المؤلف على أنه ماركسي - إنما ليس شيوعياً بمفهوم النظام الذي فرض على الاتحاد السوفياتي منذ أوائل الثلاثينيات وحتى أوائل التسعينيات. فهذا النظام بحسب رأيه قمعي ولا يمكن أن ينمو بالمجتمع نحو الأوضاع التي يطلبها في كتابه. ينتمي المؤلف فكرياً إلى كارل ماركس الذي اعتبر أن الشيوعية تنضج بمشاركة جميع الفرقاء، وأن الطاقات الإنتاجية تتفاعل ما بين أعضاء المجتمع وكفاءتهم وتفاعلهم، وربما من أفضل من عبر عن تفكير ماركس، كان بوغدانوف وهو طبيب كان من الأعضاء المؤسسين الـ 22 لحركة البولشفية وقد وضع كتاباً بعنوان «النجم الأحمر» The Red Star عام 1905.

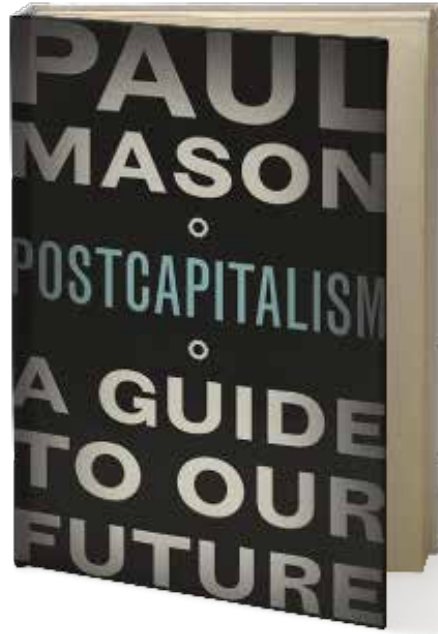
استندت آراؤه إلى أن النظام المطلوب لاستبدال الرأسمالية يجب أن يكون نظاماً مبنياً على المعرفة. ومن ثم جزم بأن العمل سيتحول من العمل العضلي إلى العمل الفكري الذي سيحل محل العمل اليدوي، وأن العمل في مختلف جوانبه سيصبح تقنياً. وستظهر حقيقة المجتمع في تفاعل وتواصل حلقات أصحاب الخبرة.

استناداً إلى هذا التفكير اعتبر بوغدانوف في كتابه أن النظام البديل للرأسمالية حسب التصورات الموضوعية سيكون نظاماً قابلاً للحياة وبعيداً عن التفكير. وتجابوب العمال الروس مع هذه المنطلقات وضغطوا لتحقيق مقدار أوسع من الديمقراطية، وتسريع التصنيع عبر التخطيط وضبط المضاربات Speculation.





ة: دليل لمستقبلنا



كان يريد ستالين عام ١٩٣٩ أن يصبح دخل الفرد في الاتحاد السوفياتي موازياً لمعدل دخل الفرد الأمريكي بعد عشر سنوات، ولو لم يكن النظام السوفياتي للإنتاج مبرمجاً حسب خطط خمسية جامدة، ربما كانت النتيجة تحققت.

ربما مقاطع اختارها الكاتب تعبر عن أسباب فشل التخطيط المركزي للاتحاد السوفياتي في تحقيق النتائج التي أرادها ستالين وفريقه. الاقتصاديان النمسيويان اللذان حققا شهرة عالمية Mises and Hayek توقعوا انهيار توقعات النمو في الاتحاد السوفياتي وكانا من المتحمسين لما سمي بـ Newliberalism أي موجة الترويج للاقتصاد الحر، وقد شدّد Mises و Hayek على أن أي اقتصاد، حتى لو كان من عداد اقتصاديات البلدان المتطورة لن يحقق تطوراً عبر اعتماد الخطط المبرمجة لتكون متكاملة على مدى سنوات. بكلام آخر، اعتبر الاقتصاديان وهما من أركان ما سمي «بمدرسة فيينا للاقتصاد» أن الشيوعية إلى انهيار.

تحليل مشابه إنما من عالم سوسولوجي فرنسي هو Andre Gotz كتب عام ١٩٩٤، أي بعد انهيار منظومة الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١، أن انتصار الرأسمالية على الاشتراكية السوفياتية كان يعود إلى أن الرأسمالية تحتوي التنوع ولا تركز إلى اليقين بأن البرامج مقدسة. بكلام آخر، ربط غوتس بين الحريات الشخصية وتنوع الإنتاجية مقابل التحجر في الفكر الاشتراكي السوفياتي، الذي كان بالتأكيد غير الفكر الاشتراكي الأوروبي، حيث تعايش الاشتراكيون، والنقابيون مع النظام الرأسمالي - وكان هذا التعايش متوقفاً والرأي لصاحب التعليق على الكتاب - لأن أوروبا الغربية تعايشت مع زيادة الإنتاج وتنويعه عبر برنامج مارشال الأمريكي الذي مكن بلدان مثل ألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا من تجهيز مصانعها بأحدث المعدات بعد خراب الحرب العالمية الثانية.

لماذا وضع الكتاب

قراءة الكتاب تبين أن كاتبه يتقدم بتصور لحل مشكلة تفجر النظام المالي الدولي منذ صيف عام ٢٠٠٧ واستمرار البحث عن برامج إنقاذية تبدي أن غالبها طابعه مؤقت وكلفة تحقيقه المالية باهظة والاستقرار المتحقق في أحسن الأحوال هش.

يمكن القول إن بول مايسون هو تلميذ لماركس، وتروتسكي وبوغدانوف، فهو مقتنع بأن توجهات هؤلاء كانت تمثل بالفعل النفس الاشتراكي الإنساني

ما بعد عام ٢٠٠٧ يشير المؤلف إلى أن نسبة ٢٠ في المئة من القادرين على العمل في الولايات المتحدة هم حالياً يعملون بشكل مستقل ودون ارتباط بمنظومة العمل التقليدية. كذلك يشير إلى دراسة موضوعة من قبل Oxford Martin School تستخلص أن نسبة ٤٧ في المئة من الأعمال اليدوية في المجتمعات المتطورة ستصبح ملغاة بسبب التطورات التقنية وربط شبكات الإنترنت ببعضها البعض. وكل ذلك سيحدث بحلول العام ٢٠٥٠، وحيث إن المؤلف يأمل في تجلي التنظيم المجتمعي الذي يتصوره عام ٢٠٧٥ لا بد أنه يرى أن اختصار قوى اليد العاملة بنسبة ٤٧ في المئة بعد ٣٥ سنة ربما يمهّد إلى التحول الذي يتصوره ويصوره بعد ٦٠ سنة من اليوم. إننا نعتقد أن المؤلف صاحب خيال واسع وخبرة مفيدة لكنه يُؤجل الحكم على تحقق تصوره لفترة تكون فيها جميعاً قد فارقتنا الحياة.

لنحاول فهم توجهات المؤلف، وهو يقر بأن فهم وتفهم استهدافاته صعب، ويؤكد أنه يرحب بكل مناقشة حتى إذا اظهرت ضبابية تفكيره، فهو يستهدف تحقق مجتمع خال من سموم الكربون ينتج المعدات الصناعية والمنتجات العادية والخدمات دون أي كلفة حدية مع اختصار ساعات العمل إلى أقصى حد ممكن يقرب من الصفر. وهو يرى أن عملية التحول التي تعتمد على تشابك برامج الإنترنت وتطويرها بشكل مستدام، تختلف عن المناهج السابقة لتنظيم الإنتاج، ويمكن اعتبارها التكنولوجية المجتمعية. ويتابع بالقول، بأن التقديرات المستقبلية ستكون مبنية على الدراسة والتوجيه وليس على التحكم والأمر كما كان الوضع في الاتحاد السوفياتي.

ويرى المؤلف أن فاعلية شبكات الإنترنت في الإعداد للمستقبل وتغييراته ستكون معلقة على احترامنا لتعقيدات وسرعة عطب العملية، وبالتالي يرى المؤلف أن علينا تطوير سياسات وممارسات تمكن من التغلب على التحديات وتسهم في ترسيخ قواعد النمو المستدام. إن هذا الكلام في الفصل قبل الأخير من الكتاب يفسح مجالاً للتساؤل عما إذا كان المؤلف يريد منّا مشاركته حالة فكرية تنظيرية تؤمن بعجائبية برامج المعلوماتية أم لا، وإذا أمنا بهذه العجائبية كيف لنا أن نفهمها ونمارسها.

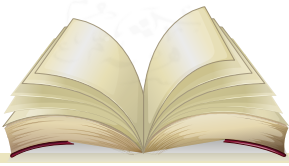
يحتمي المؤلف من النقاش حول تصورات بتحديدته زمن اكتمال توقعاته عام ٢٠٧٥ بعد مواجهة تحديات أربعة لكل منها عدة أوجه.

قبل تعداد التحديات الأربعة والتعليق على بعض

الحقيقي لا برامج السنوات الخمس التي اعتمدها فريق ستالين، وحققت نمواً اقتصادياً وجهوزية عسكرية على حساب حرية الأفراد في العمل وانتقاء ممثلهم السياسيين.

يرى المؤلف في عمل بعض المؤسسات الدولية مثل صندوق النقد الدولي، ومنظمة التعاون الاقتصادي والإنتاج التي مركزها باريس، ومنظمة الطاقة الدولية بؤادر وضع برامج تبين بالأرقام التوجهات الاقتصادية والمالية والحرارية والاستهلاكية عالمياً وبالتالي هو يرى أنه من الممكن عبر اعتماد البرامج المعلوماتية المتطورة للمال بواسطة صندوق النقد الدولي، والاقتصاد عبر منظمة التعاون الاقتصادي والإنتاج وارتفاع الحرارة عبر برنامج وكالة الطاقة الدولية وربطها ببعضها البعض التوصل إلى برنامج ممكن يؤمن مجتمعاً تتوافر فيه غالبية الخدمات ونسبة ملحوظة من السلع دون كلفة حدية، كان يفترض أنها مقياس تفعيل الأسواق الحرة. توجهات المؤلف العقائدية دفعته نحو الاقتناع بأن إنقاذ الوضع الاقتصادي العالمي واستقراره لن يحصل سوى عن طريق احتلال برامج المعلوماتية أعصاب المجتمعات وتفاعلها مع بعضها البعض، وهو في سعيه لإقناع القارئ بصورة من الصعب تلمسها على واقع الحياة يلجأ إلى توفير إحصاءات توحى بأن العالم يتجه نحو حل إلكتروني تعاوني يلغي إلى حد بعيد الجهد اليدوي ويحل العقل والمعرفة محل الجهد خاصة من قبل الفئات الأقل ثقافة والعاملة في مجالات الإنتاج البسيط. في بحثه عن براهين إمكانية تحقق تصوره المجتمعي





التحدي الثالث في وجه برنامج الكاتب لتحقيق أهدافه عام ٢٠٧٥ يتمثل في تحدي ازدياد عدد المسنين في المجتمعات خاصة منها المجتمعات النامية. فالمسنون يحتاجون إلى الرعاية الصحية والنفسية وزيادة نفقات العناية بهم، وتكاثر عدد السكان في بعض البلدان النامية، وتناقصهم في البلدان الصناعية يشكل عبئاً قد يحول دون تحقيق أهدافه.

يشير الكاتب إلى أن نسبة المسنين لمجموع الأيدي العاملة في أوروبا واليابان عام ٢٠١٥ كان على مستوى مسن واحد لكل ثلاثة من الأيدي العاملة، وحسب إحصاءات الولادات والوفيات، وإذا استمرت على معدلاتها الحالية ستصبح النسبة عام ٢٠٥٠ مسن لكل عامل، ويفترض أن تكون مداخل العامل كافية - اجتماعياً لكفاية المسن - وهنا يوفر الكاتب إحصاءات مخيفة. فالكفاية للمسنين ستوافر من صناديق التقاعد وهذه حسب دراسة Standard & Poor's أنجزت عام ٢٠١٠ ستكون مغلقة كلياً في العالم الصناعي إذا لم تتخذ الحكومات إجراءات وقائية جذرية منذ الآن، وهذا الأمر لم يحدث، بل العكس هو الصحيح لأن الأزمة المالية العالمية فرضت ضح ١٢ تريليون دولار لتفادي توسع وتعمق الأزمة وهذه الأموال لا بد من إطفائها بشكل أو آخر.

خلاصة

مراجعة التحديات التي تواجه مشروع الكاتب تبين صعوبة تحقق أهدافه، هذا بالإضافة إلى صعوبة تحقيق الأهداف نظرياً وفكرياً. ربما أهم ما وفره الكاتب التفاتة إلى قضايا مصيرية حيوية، وتبرئة للفكر الاشتراكي لماركس، وبوغدانوف، وتروتسكي من طغيان السلطة أيام ستالين على خيارات الإنتاج والحياة في الاتحاد السوفياتي.

الكتاب يبين دور الأسواق والتبادل والتمويل التجاري منذ القرون الوسطى، ويؤكد أن أسس التبادل والنقود تعززت وتوسعت على مدى ٦٠٠ عام ويزيد ولا نرى كيفية تحقيق برنامجها للاستغناء عن قواعد الرملة والتبادل مقابل الأرباح يمكن أن تحصل. وربما لهذا السبب يقول الكاتب قد يرى القراء أنني يوتوبي أو حالم وأنا أقول إن الأحلام هي المحفز للإنجاز.

الكتاب: Post Capitalism: A guide To Our Future

المؤلف: Paul Mason

الناشر: Publishers Allen Lane, ٢٠١٥

مروان إسكندر: كاتب لبناني

٢٠٥-٣ ملايين برميل يومياً اليوم، ومكامن الغاز في إيران ضخمة، وغاز الصخور في الصين التي أصبحت البلد الأكبر استيراداً للنفط والغاز ستكون كافية بعد ١٠ سنوات لكفاية الحاجات المحلية.

بكلام آخر، استنزاف مصادر الطاقة من الفحم والنفط والغاز ليس أمراً ملحاً كما كان الاعتقاد سائداً منذ سنوات قليلة، والأمر الذي يستدعي الانتباه والحذر أن استهلاك هذه المصادر لتأمين الطاقة الكهربائية وتحلية المياه وتغذية صناعات الأسمدة والبلاستيك إلخ يسهم في ارتفاع درجة الحرارة وتمثل المشكلة الأساسية للتعديلات المناخية.

يعقد في باريس آخر هذه السنة مؤتمر دولي حول ارتفاع درجات الحرارة وما يمكن أن يمثله ارتفاع متوسط حرارة الطقس درجتين حتى عام ٢٠٥٠. ويعتمد الكاتب على كتاب أنجزته Naomi Klein التي كشفت في السابق مساوئ ترسيخ الأسماء التجارية على ارتفاع الأسعار وإلقاء الظلم على عمال بلدان العالم الثالث وكتابها الجديد نشر عام ٢٠١٤ بعنوان This Changes Everything: Capitalism vs The Climate ويركز على بحث الانحسار الحراري والإنتاج الرأسمالي وترافقهما.

كتاب Naomi Klein يوفر جميع الحجج المقنعة بالنسبة للأزمة المناخية الناتجة عن تعاضم نسبة أكسيد الكربون في الهواء الذي تنتشقه البشرية، فهي تستند إلى عشرات الدراسات التي تبين أن ارتفاع متوسط قياس الحرارة درجتين ٢ Celsius degrees حتى عام ٢٠٥٠ يؤدي إلى فيضانات تجتاح مجتمعات عديدة شاطئية، وإلى جفاف يهدد الحياة البشرية والنباتية في مناطق متعددة من العالم وبالتالي تشارك المؤلف تحذيره للعالم من استمرار وسائل الإنتاج كما هي حيث إن الاستمرار قد يؤدي إلى هلاك مجتمعات بكاملها.

يرى المؤلف بصيص نور في سياسات ألمانيا بالنسبة لانبعاثات غازات ثاني أكسيد الكربون. فألمانيا قررت الاستغناء عن مفاعلاتها النووية بالكامل في عقد الثلاثينيات المقبل، والانتقال إلى اعتماد الغاز بدلاً من الفحم في إنتاج الكهرباء، والأهم من ذلك بكثير أن ألمانيا ستزيد نسبة اعتمادها على مصادر الطاقة المتجددة، كالتقنية الشمسية والهوائية ومصادر الطاقة من المنتجات الطبيعية إلى نسبة ٣٥ في المئة من استهلاكها للطاقة، وكل ذلك خلال ١٥ سنة. ويرى الكاتب في سياسات ألمانيا مدخلاً إلى ضبط زيادة معدل الحرارة قبل حلول العام ٢٠٥٠.

جوانبها وزيادة توضيح فناعات الكاتب نشير إلى تبنيه نظرة اقتصادية فرنسي هو Yann Moulier Boutag الذي يقول إن الإنترنت - علماً بأن الفرنسيين هم أول من أدخل خدمات الإنترنت للاستعمال الاجتماعي لا العسكري في العالم - هي السفينة - للتغلب في عصرنا هذا على التحديات وتطوير عالم جديد، ويضيف أن الإنترنت هي السفينة، وقياس التوجه Compass، والمحيط الذهبي أي الوفرة في عالم ما بعد الرأسمالية. بعد هذا التلخيص لقناعة الكاتب بجدوى ترابط شبكات وبرامج الإنترنت يشير إلى أربعة تحديات رئيسية يعتبر أنها تعدل في دينامية نظام الرأسمالية وتجعله نظاماً غير قابل للاستمرار في المستقبل، وهذا مبرر التفكير بنظام ما بعد الرأسمالية، أي هدف الكتاب. التحديات الأربعة الرئيسية هي التالية:

استهلاك الطاقة ومصادرها

التعديلات المناخية (الاحتباس الحراري)

ارتفاع أعداد ونسبة المسنين

الهجرة

التحديات الأربعة لا بد من التصدي لها إذا أراد العالم أن يحقق نظاماً جديداً قابلاً للاستمرار قد يكون من دعائم إرسائه بعض أفكار المؤلف، وهو يعتبر أن أول وأهم تحد يجب مواجهته هو التعديلات المناخية والتي تتشابه مع التحدي الأول أي استهلاك الطاقة ومصادرها.

استهلاك الطاقة ونضوب مصادرها حظي باهتمام الباحث منذ زمن. فمن المعلوم أن كميات الفحم، على ضخامتها يمكن استهلاك أغلبها القابل للإنتاج مقابل تكاليف معقولة خلال فترة لا تتجاوز الـ ٥٠ سنة، ومكامن النفط معلوم أنها ناضبة وأن ضغط الآبار ينخفض مع الإنتاج وكانت التوقعات تفيد بأن المكامن المكتشفة لا تكفي معدلات الاستهلاك - حوالي ٩٥ مليون برميل يومياً - لأكثر من ٥٠ سنة، لكن اكتشافات غاز صخور الطفال Shale Rock والنفط في هذه الصخور عدل التوقعات بصورة جذرية. فالولايات المتحدة التي كانت المستورد الأول للنفط، والمستهلك الأول للغاز - مصدر الطاقة البديل لمشتقات النفط في غالبية استعمالاته والمصدر الأنظف لإنتاج الطاقة - حققت اكتشافات ضخمة للغاز والنفط خلال السنوات الثلاث المنصرمة، وبالتالي لا حاجة للولايات المتحدة لاستيراد الغاز السائل من الجزائر ونيجيريا وقطر وإندونيسيا إلخ ولم يعد لديها حاجة لاستيراد النفط. بالمقابل، مكامن النفط في العراق وافرة وغير مستغلة وكافية لإنتاج ١٠ ملايين برميل يومياً لعقود بدلاً عن